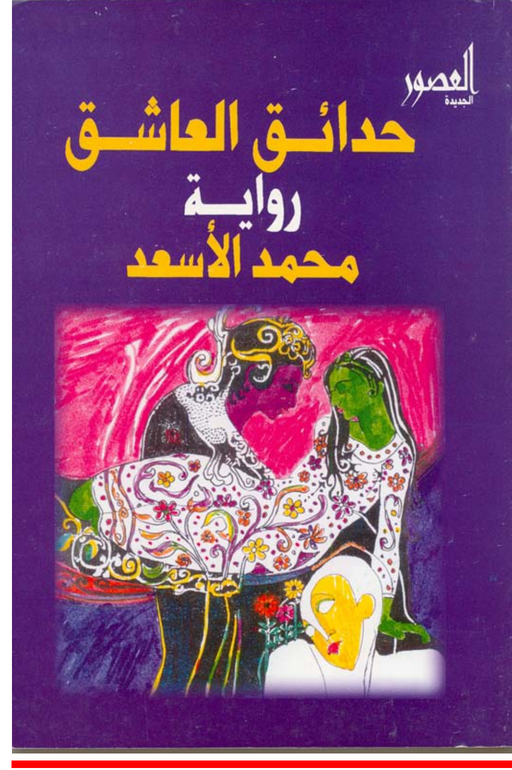


حدائق العاشق

محمد الاسعد

رواية

أغنية الطائر الحجري

سأطلقُ كلَّ ما فيكَ
لتكون لي
أيها الطائرُ الحجري
يا صمتَ قيثارةٍ ضائعةٍ
في ضبابِ القرونْ
حيث يجد مسرّاته قلبي
وتجد أسماءً لها
هذه الوردةُ
وهذه الصيادةُ الماكرة
وقبائلُ الأعشابِ
وأغنيةُ الجذور التي
ستتحوّلُ إلى حجرٍ بعد قليل
سأطلقُ كل ما فيكَ..
مفكراً بالدموعِ التي
هي أحفادُ الأعاصير

والرسائلَ التي لم ُتكتب
لأنها كانت تمضي باتجاه ِالليل
دائماً
واللغاتِ التي
هي طائرٌ مرتبكٌ
لا يجد ما يسميهِ بين جسدين

أيها الحجريُّ،
يا صديقي،
يا أخي،
يا شبيهي،
يا ضحيةَ الأغنية،
وخفقةَ الريح بين الأوراق اليابسة
أيها التوازن الجليل الذي
يحفظ الأغنية
من أن تميد بنا
ويترك لنا فسحةً من الزمن
نتبادل فيها
خواتمنا الحجرّيةْ

(محمد الأسعد- 1989)

السفر الأول

I أثينا

أشياء بلا أسماء في روحي
(بيلا احمدولينا)

ذات ليلةٍ ولدت قصائدُ يونانية غريبة
تدافعتْ بين النوم واليقظة في نعاسٍ خفيف
ولدت أمكنةٌ ووجوهٌ هي كلُّ ما يبقى من ذكرى الإنسان
يتحدث عنها قمرٌ أو سحابٌ عابرٌ أو جبلٌ أو ساحةٌ خالية
طريقٌ متعرج يصعد إلى قمةِ الأكروبولس
صخورٌ ملساءُ خشنةٌ ملساءُ مرتفعةٌ منبسطةٌ ضيقة
خلقٌ كثيرون على السفوح من كل الجهات
حشرٌ مشمسٌ لا ملائكة ولا شياطين
حطامُ فردوس محتشدٍ باللغاتِ وعلب البيرة والسندويشات
وروائح المقاعد الجلدية
وسائحين يرتخون على الدرجاتِ الحجرية

I

المرشدُ السياحيُّ القصيرُ يتوسط حشداً ملوناً من نساءٍ ورجال
تتساقط كلماتٌ مثل فقاعاتٍ فوق الوجوه الملساء:
براكستليس.. البولوبونيز.. أثينا..
بينما تقعي سائحةٌ بدينة على الحافة
تدخن بشراهة
وتتطلع إلى الأفق البعيد.

II

أعمدةُ المعبد عاليةٌ تعلوها أفاريزٌ خالية
سوداء
ومن وسط أثينا الأسواقِ والفنادقِ وساحةِ الحمامِ
تظهر القمةُ
جبلا ضئيلا نائياً وغريباً.

III

في غرفةِ الفندق دقّت بابي
في منتصف الليلِ امرأةٌ أعرفها من كتب التاريخ
لم أتبين منها سوى ألوانها :
شفاهٌ ثقيلة بحمرة قاتمة
عينان غارقتان في ليلٍ فاحم
شعرٌ يتهدل في شمسٍ غاربة
جسدٌ ينبض مع كل كلمةٍ بحضورٍ كثيف

IV

تقاطعت المرأةُ مع القصائدِ والهوامش التي كتبتُها
على صفحاتِ كتابِ شعر مترجم
وارتبكتْ قليلا أمام ذهولي
قبل أن تستدير وتمضي
يخيل إليّ أنها لم تفهم حتى الآن
أنها أخطأت العنوانَ والشخصَ المقصودَ
والليلة ربما

V

أحدّقُ في قواعد الأعمدة المتآكلة
في الأفاريزِ الخاويةِ وصفحةٍ في كتاب
من هنا أطلق لورد بايرون احتجاجه :
"التماثيل التي حافظ عليها البرابرة سرقها المتحضرون"
بعضها تحوّل إلى مسحوق أبيض لطلاء بيوت الأتراك على الأكروبولوس
بعضها يتناثر في قصر اللورد إيليجين
خلقٌ كثيرون من كل الجهات
وعند الحافة معبد القرويات
تماثيل تحمل الأفاريز على رؤوسها
متماثلة بثيابها الضافية ووجوهها المستطيلة المنسابة
وبالوهمِ ربما
وهمِ أنهن يحملن شيئا

VI

القروياتُ هادئاتٌ منذ الأبد
بعيونهن اللوزية والشفاه الساخرة
وشعر الرأس المنحدر على الجانبين متعرجاً
لا قداسة حيث الصخر والسكون
الرعبُ وحده
ربما الزمنُ الذي تلوثه خضرةُ أعشابٍ منسية
غبارُ البارود ثم سناج دخان المصانع
وهكذا إلى أن لا تبقى سوى الريح

VII

أفكرُ بالمرأةِ المجهولة متخيلا
أنها سألتْ عني في الماضي والحاضر
تابعتْ طريقها مع السطور وهي تتلاحق باتجاه غابةٍ أو قوسِ انتصارٍ قديم
أو نافورةٍ في ساحةٍ من ساحات إحدى العواصم
نهارٌ محموم في معبد دلفي
لم تبق سوى الريح بين أشجار الزيتون والبندق
ذكرى عصافير تنتشر في غابةِ توت
خيالاتُ نيرانِ الأضحيات
العباءاتُ الأرجوانية
النبيذُ
أنهارُ الحضارة اليونانية في أعياد لا تحصى

VIII

قال سقراط ذات نهارٍ مشمسٍ يشبه هذا النهار
ربما على نفس هذه الدرجات الحجرية
وأمام جمع مثل هذا الجمع:
"أجابتْ الكاهنة وهي تتلوى بتأثير دخان الكهف المسكر
سقراط أحكم الناس
فعجبتُ من الأمر
ورجوت أن أعرف
لهذا مازلت أسأل من ألقى في الطرقات والحوانيت
لأثبت خطأ الكاهنة "

IX

الحجرُ
بقايا الحجر
يا للمهمة المضحكة

تفقد الأعمدةُ سقوفها
والأفاريزُ آلهتها
ويتلوى الطريق صاعداً بنا
نحو مغارة الكاهنة

X

ذات نهار ستدعوني الكاهنة
فأتقدم وجلاً بين الأشجار
تعرّيني نظرتها
فأتحول إلى ماءٍ دافق
فرجةٌ بين أشجار الغابة تضيئها شمسُ منتصف النهار
أزهارُ بوكنفيليا ورمّانٌ وداندليون
ونسيمٌ وغمغمة مبحوحة
" سأجعلكَ كاهني الوحيد..
متاهتي الوحيدة.."

XI

ذات مساءٍ ستهمس هذه الأزهارُ في الوحشة
تنتبه إلى حدود الفجر
إلى الامتلاء الذي كان
إلى قلبِ الأشياء والحديثِ والشفاهِ
ونعاسِ أوائل النهار
ننعطفُ مئات المرات ضائعين في أراضٍ
ينتشر فيها النوّارُ
وتتساقط نغماتُ البيانو في عتمةٍ خفيفة
هناك في السماء

حيث تنحدر الغيوم في الظلال
حيث تركتُ طائري الحجريّ الملون الصغير

XII

ستحلق الطيورُ عاليا
وينحدر طائرٌ وحيدٌ
يحطّ فجأة على غصنِ شجرة
يهتزّ الغصنُ على خلفيةٍ من سماءٍ خضراء
يتموّج العشبُ في الريح
يتحول الطائرُ إلى ظلّ والشجرةُ إلى عتمة
والشفقُ إلى برتقالٍ مصهور

XIII

أمكنةٌ لا سبيلَ إليها
لوحاتٌ معلقة أو مرايا
لا منفذَ إلى صمتها أو حفيفها
لا منفذَ إلى الأخضرِ والأحمرِ والبرتقاليِّ
كأنما في برّيةٍ بعيدة
في زاوية ما من زوايا هذا العالم
أثينا ، روما ، طليطلة ، صوفيا..
ربما في سهوبٍ بعيدة

XIV

الطيورُ تغيّر أشكالها
تنحدرُ إلى جوانب البحيرات
تختفي بين الأشجارِ والصخورِ
تخرج من الأجمات نساءٌ
ذهبياتٌ يهبطن إلى الماءِ
واحدة بعد الأخرى

XV

قبل أن أصل إلى حافة المياه
إلى حانةٍ مطلةٍ على البحرِ أتوقف
لدى قريةٍ صغيرة مصنوعةٍ من ترابٍ وغبارٍ
ورغبةٍ مكتومة
تتنفس تحت عقودها العباسية
رطوبةُ مياهٍ تترقرق خلف الجدران العالية
أشجارُ البيت المألوفة
السدرُ والنخيلُ
عصافيرُ الدوري
طرقاتٌ متربة تنحدر نحو مسجدٍ ومنارة زرقاء
كان ذلك قبل ستمائة عام أو أكثر ..
"سافاثا" أيها الآرامي التائه
تسأل صاحبةُ الحانة
بعد أن تعرّفتْ عليّ وقدمتْ لي كأسا
"إلى أين تمضي بهذا الوجه المتعب حتى لا يكاد يعرفك أحد؟"
فأقول في حلمي "إلى أبي"

XVI

السماءُ عاليةٌ
فضاءٌ شاسعٌ من البرتقال والتركواز
وبيننا هذا الزمن..
مياهٌ شفافة
وبعيدا في القاع تحلق الطيورُ
تتجرّد النسوةُ وتبترد الظلالُ
تنفتح النوافذُ في الجدران
تتغير أشكالُ البيوت والناس
ترتفع المباني الإسمنتية بجوار البيوت الطينية
تتصاعد نداءاتُ الباعة
وتختفي البساتين
يتحول الليلُ شيئا فشيئا إلى كهرمان
تقول صاحبةُ الحانة
"لا شيءَ يبدأ أو ينتهي
مشهدٌ صامتٌ يرتفع فيه غبارُ الصحراء ما أرى
أو ثلجٌ يدوّم في أقاصي الشمال البعيد
ليس لنا إلا أصواتِ الكلمات وألوانَ الأشجار
والأغنيةَ التي تتحوّل إلى حجر
وهذا الحفيف الذي تصدره خطواتنا في ممرات الغابة
ليس لكَ إلا أن تتحول إلى ما تشتهي
تستيقظ صباحا فإذا أنتَ فراشةٌ
وتنعس ظهراً فإذا أنت سدرةٌ تزحمها العصافير
ومع الليلِ تكون قيثارةً مفلولة
صمتها أخضر

في فراش امرأة وحيدة"

XVII

الريحُ تعصف بين أشجار الزيتون والبندق
نغماتٌ واهية تتساقط في أماكن ملتمعة
ثلاثة تلاميذ في مرسم الكلية أمام طالبة منحرفة على مقعدها
وشعرها كأنما عبث به نسيمٌ عابر
وأنتِ وراء البيانو والطفولةِ والموسيقى
في مكان مجهول
يواصل الأولُ الرسم حتى تكتمل اللوحة
يرسم الثاني نافذةً في جدار بعيد
يتوقف الثالث ولا يتم لوحته حتى هذه اللحظة
تتركين غرفة البيانو
نترك مرسمنا إلى الأبد
ألحاناً منفردة في أماكن متباعدة لم تبدأ معا
بعضنا يُعزف في غابات هادئة على حافة البحر
بعضنا يتردد في غرفٍ مغلقة
بعضنا تصيبه خضرةٌ مجهولة
ما يتعمق الآن هو لونُ شجرة المندلينا التي ستموت بلا ضجيج
ما يخفت هو حفيفُ الخطوات والليل يقترب من نهايته
أصفو مثل مرآةٍ
أود أن أكون في كل مكان
في كل الساحات
ساحاتِ المدن التي تجولتُ فيها ذات أصياف أو شتاءات
في كل الأمسيات البعيدة والحانات المنزوية
مع كل الصديقات اللواتي ضاجعتُ على أسرّة الفنادق
أو التقيتُ أمام مطاعم الوجبات السريعة
والمتاحف والنوافير
أو سهرتُ طويلا بعد أن غادرن في القطارات المتجهة شمالا

XVIII

الجدرانُ تتهدم
تنهضُ من جديد
تتسع وتمتدُّ
ميادين العواصم تغصّ بالمارة كل يوم
وتشهد المطاراتُ خليطا عابثا من نساءٍ ورجالٍ ينتظر عند البوابات
امرأةٌ على مقعد يطلّ على سماء غرناطة المحتشدة بطيور السنونو الخاطفة
وجوهٌ تجيئ وتمضي
والمذيعةُ تعلن عن طائرةٍ مغادرة
في هذه اللحظة أسمعُ اسمكِ يتردد
أمسيةٌ في محطة القطار الذاهب شمالا
فينيسيا والغروب
وجوهٌ صامتة وراء نوافذ القطار
وأنتِ في النافذة ذهبٌ وأرجوان
وكل ما يغادر إلى الأبد

XIX

تختلط الشجرةُ بالعتمة
بالهواء
تمتزج المرئيات
الطائرُ ظلٌّ والشفقُ كهرمان
لم يعد العشبُ أخضرَ
والريحُ برتقالية
الليلُ وحده يجعل الكونَ في بدايته الأولى
ينحدر الطائرُ عن غصنه فجأة
يسقط متحجراً في حضنِ امرأة ساهمةٍ على مقعدِ مقهى
تتناولهُ
تقلّب جسده المتحجر

تمرّ أصابعها على ألوانه
بريقُ أغنية خرساء وعتمة ضافية
ضوءٌ وحيد يسقط على الطائر والمرأة

II الصحيفة

تطير العصافير رمادية في ردهات المبنى

يتمنى صديقٌ استقال ضجراً أن يكتب مانشيته الأخير على امتدادِ ثمانية أعمدة:
" اللعنة " ..
ويغادر.
ويتمنى آخر أن يكون قطروزاً لقطيعها ولا أعرف من هي. أما السيد ويست، محرّر النسخة الإنجليزية القادم من جنوب أفريقيا، فيتمنى أن يلتفت ولا يجد وراءه محرراً أسمرَ يحدق فيه، فيزايله خوفه إلى الأبد.
لم يأتِ ذلك اليوم، فصاحبُ اللعنة يقيم الآن في بلادِ القواقع الجبلية حيث تتكدس البيوتُ الإسمنتية على منحدراتِ التلال الصخرية الداكنة فوق كهوفٍ معتمة يتناثر على أرضها رمادٌ وبقايا أخشابٍ محترقة.
القطروزُ لم يجد قطيعها كما يبدو، فواصلَ كتابة قصص وقصائد ذات عناوين طويلة تسيلُ بين براميل سفن الشحن ودموع فارسه الذي حين آن له أن يترجل، ترجل واستند إلى عمود كهرباء.
السيد ويست اختفى في خوفه، أو اختفى مع خوفه ذات ليلة شربَ فيها حتى الصباح، واستيقظ ليجد كوابيسه تحدق فيه مباشرة، فعاد إلى غفوته مرتعشا.

حين أسمعُ حفيفَ الأوراق وصياحَ المحررين، أعرفُ أنني أمام مكتبي عصراً.
لفائفُ أخبار الوكالات التي لا تنتهي تنتظر والأمواجُ والمقاعدُ والعيونُ وفناجين القهوة. وحدها العصافيرُ تمرّ والنساءُ ولا يراها أحد. هذه مهماتٌ جديرة بالدجاج. النسرُ تحت المطر ينكش أسنانه لامباليا، إلا أن النسرَ في مبنى صحيفة لا يملك نكاشة أسنان حتى. النساءُ كثيراتٌ والمطرُ ينهمر في الخارج للحدائقِ وحدها والليلِ والطرقاتِ البعيدة. هل أنا نسرٌ محكوم بالبطالة بين دجاجٍ يلتقط الحبوب أم شاعرٌ يحسّ أن كل امرأة جميلة تخونه حين ينهمر المطر؟
يلتمع بلاطُ ساحة بياتسا نافونا تحت الرذاذِ الخفيف، يُخلي الرسامون والغجرياتُ والمتسكعون وبائعو الخرز الملون والعقودِ الخشبية أماكنهم، تسيل بنا الشوارعُ الجانبيةُ المعتمة. روما الأزقةِ والمطاعم العائلية ورائحةِ الجلود وأفخاذِ الهيبيات الناعسات على درجات ساحة أسبانيا.
ربما كان السببُ تقوّس المنقار، وهذان الجناحان اللذان لا يصلحان للتهادي بين الردهات الضيقة. ما شأني بهذه الردهات؟

تلتقيه الايرلنديةُ كل ليلة مصادفة. يغادرُ وهي في طريقها إلى الداخل. تحدق فيه للحظاتٍ بدهشة امرأة أربعينية. عينان تتسعان اخضراراً للحظات ثم تتسرب بخطوات متعجلة، وتغيب إلا من ردفين عجولين في آخر الليل.
يعود إلى طريقه ترافقه هذه التي تبدو مثل كاهنةٍ تسكعت طويلا في الماضي بلا مريدين ولا عشاق. ينساها. وفجأة يتغير شئ ما، يقدمه الصديقُ الضجر إليها مازحا:
"هذا أحد المعجبين بكِ... جدا"
" حقا؟ "
لا يبدو عليها سوى أنها استثيرت بطريقة ما، وهو ما أدهشه قليلا.

لا يتحدث ناجي كثيراً. كلمة أو كلمتين. ينشغل وراء طاولته مخفياً نصف قامته ونصف وجهه القاتم وراء لوحة الرسم، إلا أنه يقول بعد بضعة أيام من دون مقدمات أو سياق كأنه قرّر أمرا:
"أنت رجل خطير.."
ويثبت نظره عليّ للحظات، ينحني ويغيب وراء اللوحة. فأظل ساهما أتطلع إلى رأسه المنحني، إلى شعرهِ المخلوط من بياض ورماد، لا أعرف ما الخطورة التي يعنيها، ولا يفسّر.
جملةٌ مكتظة تشبه إيماءةً غامضة، واثقة من أنني فهمت كل شئ أو يجب أن أفهم. هذا الاعتقاد ربما هو الذي جعلنا نتواطأ على عدم الثرثرة، على الصمتِ ونحن ننحني على مكتبينا المتقابلين.

الضروري قليلٌ جدا، والغرفةُ ضيقة يختنق معها اتساع النافذة، نافذةٌ لا تجئ بالفضاء بل بأضواء لافتات النيون الخرساء على واجهة مبنى بعض نوافذه مضاءٌ ومعظمه مطفأ مهجور.
الساداتُ يلهو في القاهرة، وناجي يخرج إلى الشارع متمهلا، نحيلا أقصر مما تتصور، طفلا ضائعا لم يعد يبحث عن أهله منذ زمن طويل، لا يفزع من هذا النحول، لا يبالي بالاكتظاظ من حوله، الكلُّ يصرخ ويجادل، وهو ينقل بصره بينهم صامتا. وما أن يعود من جولته حتى ينهمك في تخطيط كاريكاتير السادات الهيبي، أو الأنظمة الهيبية على حد تعبير سكرتير التحرير الأشد رطوبة من زاوية جدار متآكل.
الساداتُ يرقص على سطح دبابة، يغني وبين يديه جيتار بلا أوتار:**"make love not war"**

تدعوه الايرلنديةُ.. جين.. جين التي اتسعت ابتسامتها الآن إلى الغداء في شقتها ظهراً، حيث ستقطع الحرارة عن هاتفها طوال ست ساعات كما أخبرته فيما بعد. وستقول لها الهولندية إيرين بشيء من الألم الخافت :
"فهمتُ كل شئ"
وسيسألها :
" لماذا لم تخبريها..؟"
فترد مستغربة:
"أمجنونة أنا؟ لو أخبرتها فلن تغادر مكتبكَ حتى يوم القيامة"
"وهل يزعجكِ هذا؟ "
تغمغم باستسلام يائس:
" لديها الكثيرون، أما أنا فليس لدي غيركَ"
أما الآن فتدعوه جين، ربما ليدفع ثمن مزحة صديقه الضجر، أو ربما ليحسّ باهتزاز شجيرة الدفلى تحت قطرات المطر.
كانت الدفلى بأزهارها الحمراء الناعمة تتمايل في الريح لدى الباب حين وصل. وكان المطرُ يتساقط خفيفا. ستسميه بعد ذلك الرجل الساحر و قوس قزح، وكل ما ضمته سلالُ طفولتها وهي تستلقي تحت شمس برايتون قبل ثلاثين سنة. أسماءٌ يتلقاها بلامبالاة أو سخرية أحيانا.
حين أطلقتْ عليه اسم قوس قزح بصوتها المتهدّج المبحوح ارتجلَ لها بالإنجليزية أغنيةً مرحة عن امرأة أطلقوا عليها تسمية امرأة الكرز، شعرُها القمحي طويلٌ حتى البحار الشمالية، وعن قوس قزح ضاحك يتلاشى في الفضاء.
قالت مرتجفة الشفتين:
" امرأة الكرز.. اسم رائع.."
وفي إحدى الليالي، وأمام المدفأة الحجرية حين كانت تنتحب وهو في طريقه إلى المغادرة فجراً، ارتجلَ لها قصيدةً هامسة تتحدث عن النار الأولى التي لن تعود، والحبِ الأول الذي لن يعود، والله، الله الأول.. الذي لن يعود.

كلٌّ شئ يبدو خفيفا، حتى فرحها الصاخب الذي حولها إلى طفلةٍ تحاول أن تستر عريها حين ضاجعها ست مرات متوالية قطعتها لحظات مرحة:
"أنتَ مدهش.. لأول مرة أعرف رجلا يضاجع.. ويضحك.. ويمرح"
تلك لحظات متعتها في آخر الليل، وعلى أطراف الفجر، وهما في السريرمع القهوة والسجاير وعتمة الغرفة الخفيفة. وذات يوم دهش بدوره حين روتْ له كيف أن ضيفتها الويلشية أستثيرت تماما حين أخبرتها أنها أصبحت تعرف بفضله خمسة أوضاع للمضاجعة.

الشقةُ هادئةٌ، والصالةُ عريضةٌ واسعة محتشدة برفوف الكتب والاسطوانات، وعلى مقعدٍ طويل انفتح كتابٌ كبير على لوحاتٍ شرقية، أسواقٌ ومقاصرُ ونساءٌ في حمامات تركية، وصقور وصقالبة. وحدها، ولا يهتم أن يسأل لماذا. يفضل أن يظل خالي الذهن.
تسأله ماذا يشرب، وهي تقف أمامه وتبتسم بفضول:
" كولا.."
وبدا على وجهها غيظ مكتوم زمّ شفتيها:
"ماذا تحب أن تسمع..؟ "
"أي شئ ترغبين.. الأفضل كلاسيك.."
لا يطلب شيئا، فالدفلى صديقة المطر بلا إعداد مسبق، والطائرُ الهادئ على غصنه يمتزج بالعتمة أو يسقط بين يدي امرأة بلا سبب مفهوم. فقط يضيئه ضوءٌ ساقطٌ من مكان مجهول. كلاهما آتٍ من الليل نفسه، وذاهب إلى الليل نفسه. لم تثر الموسيقى في نفسه صدى. سكونه يشبه هواء مفقودا في الفضاء. الهولندي الطائر أو الطائر الهولندي، كان هذا ما يخفق بجناحيه بين أصابع فاجنر الموسيقية.
سفينةُ أشباح. نشيدُ بحارة غرقى ينطلق فجأة من أعلى الصواري. نشيدٌ مهدد يرافقه الصخبُ والأضواءُ قبل أن ينقطع فجأة وتغرق السفينة في الصمتِ والظلام .
وفجأة يقرّرُ أن ينفض السكون، أن يحتفل، فيطلب خمراً. وتقفز فرحةً، وستظل فرحةً زمنا طويلا مادام يطلب ويطلب:
" نعم .. هذا .. وليس .. كولا "
تواجهه على مقعدها، هي وموسيقى الطائر والصالة، بوجنتيها البارزتين وشفتيها الرقيقتين ودشداشتها البيضاء المضحكة. شعرها الكستنائي القصير مبللٌ، ووجهها محمرٌ قليلا وهو ما أثار حنانه وأخرجه من حالة المراقب. لا بد أنها استحمت قبل وصوله، عطرها واضحٌ وضوح حديقة صيفية، وكذلك نهداها وجسدها الممتلئ وردفاها البارزان.
تقترب منه وتجلس على ذراع مقعده، تكاد تلتصق به وهو يتحدث عن كآبة الصحيفة وهي تنهال عليهما بفضائها الأخرس، عن النسور المتوحدة التي لا تجيد مهنة التقاط الحبوب، عن الحديقة التي لابد أن توجد دائما غافية في أجسادنا المثقلة.
هي فوقه تماما، مما سمح لها أن تضحك وهي تستمع إلى ملاحظاته، فلا يصل إليه سوى الحفيف، حفيف جسد من كلمات متناثرة من شاطيء قريب. تمسّد شعره وتدني جسدها إليه. يتطلع إليها فإذا

هي تنتظر، يحيط خصرها بذراعيه فتميل عليه، ويلصق وجهه تحت نهديها مباشرة، تحني وجهها وتقبل شفتيه، ولكي يكون أكثر بساطة منها يغمغم :
"ما الذي نفعله هنا؟ من الأفضل أن نكون في الفراش"
توافقه بلهجة تحاكي تساؤله:
" صحيح .. ماذا نفعل هنا ؟.. هات كأسكَ وسجائرك.."
تنهض وتتقدمه. تلتفت إليه مرّة بعد مرة كأنما لتتأكد أنه يتبعها وأنه لن يختفي.
إلى يسار الصالة ردهةٌ وبضعة غرف. حين دخلَ كانت في السرير تحت غطاء أبيض لا يكاد يتبين وجهها في العتمة الخفيفة، فبدأ يخلع ملابسه قائلا بهدوء:
" سأتعرى تماما "
إلا أنه حين اندس بجانبها رافعا الغطاء فوجئ بجسدها عارياً تماما وشاسعا في امتلائه، جسدَ امرأة كامل الطفولة، فاحتضنها وهي تتضاحك:
"أنت لم تتعر تماما ! "
بعد أيام وهما في الصحيفة جاءتْ إلى مكتبه ليلا وجلستْ جانبا تصغي إليه وعيناها لا تفارقانه، بينما كان يتحدث مع هذا وذاك، وما أن خرج الجميع حتى قالتْ وهي تغمض عينيها وتشد شفتيها:
"حين أسمعكَ تتحدث أشعر وكأنكَ تدخل بي"

جيفارا لا يزال مختفياً، يشاركُ في تظاهرة في "جواتيمالا"، أو يُقتل في البيرو بالصدفة، أو يشاهد في مطارٍ على وشك دخول الغابة تحت اسم مستعار. لهذا اطمأنَ إلى أن جيفارا بشعره المسترسل ولحيته المهملة سيكون قادرا على الإفلات من الموت، لن يموت، إنه في كل مكان كما أشار في أحد كتبه الصغيرة.
الغابةُ متاهته، وحزنُ كل المسحوقين في العالم يثقل عليه. ثورة كوبا في أواخر الخمسينات، شبانٌ صغار ملتحون يهبطون من الشاحناتِ أمام قصر الرئاسة ببضعة بنادق. أما الآن فقد استطالت الخيوطُ وتشابكت. وذلك المرحُ الذي يذكر بحقول قمح خضراء بدأتْ تعصف به الرياحُ والحكمةُ والقوانين. لم يعد الوصولُ سهلا إلى أي مكان رغم احتشاد الطرقات وساحاتِ العواصم بالشعور المسترسلة والأجساد العارية.. والغناء .. الغناء وحده من أعلى الصواري والكاتدرائيات والمنحدرات والساحات.
وهو عائدٌ سيراً على قدميه شاهد مذكرات جيفارا في واجهة مكتبة، فانتبه إلى أن الهيبيَّ الوسيم لم يعد موجودا. كتابه الأول كان ذكريات الحرب الثورية أما هذا فكان المذكرات البوليفية. واشترى الكتاب من دون أن ينتبه إلى أنه لم يكن يملك أكثر من ثمنه، وهكذا قضى الليلَ جائعا يلتهم المذكرات البوليفية، يتجول في الغاباتِ ويتخيل متعة هذه الحرب التي تشبه لعبة مرحة يتخللها إطلاقُ رصاص ونشيد، أو هذا التاريخ الصغير لحفنةِ رجال يصطادون القردة لعشائهم ويوقدون النيران في العراء. حفنةٌ تود أن تقلب جبلا وتنفض الغبارَ عن ملابسها وتمضي إلى قارة أخرى.
تستوقفه عبارةٌ بدا أنها كتبت في الظهيرة تحت ظلال الأشجار:
" أنا الآن في الأربعين، وعليّ أن أفكر بمستقبلي كثوري.."
وتساءلَ:

" ترى هل يتقاعد الثوريون؟ "
ترافقه صورةٌ أخيرة.. بضعة رجال في واد عميق يسيرون متعبين وجائعين وعلى أكتافهم حقائب الجنود في خط طويل، ومن أعلى الوادي تزيح راعيةٌ أغنام أغصان شجرة، تراقب هؤلاء الذين يسيرون ببطء بعيداً وهم على وشك دخول الغابة:
"سبعة عشر رجلا متوحدون تحت قمر شاحب"

لا أحدَ يعرف جين ولن يعرفها خارج الكلمات. الكلماتِ التي ستكتب، فقد رحلتْ منذ سنوات من دون أن أشعر. بكتْ فجأةً ذات ليلة وهي على طرفِ السرير ووجهها بين يديها، ذبلتْ فجأة كأنما توقف سقوطُ المطر، وسكنت أوراقُ الشجر، يدهشني بكاؤها بعد أن قضينا الليل معا، وهي تهمس:
" أنا يائسة جدا.."
لن يعرف أحد هذه اللحظة، ولن تعرف جين شيئا عن هذه الغابة، وعن رغبة قوس قزح في أن يتحول إلى حجر. لا الأزمنةُ تلتقي ولا الأمكنة، ربما الزمنُ هو ما يلتقطنا في شبكته مثل أشباح، ربما البوكنفيليا الأرجوانية الفاتحة وحدها أشدّ خلودا من خطواتنا، من أحلامنا، وهي تصدر حفيفا كالريح بين الأوراق اليابسة.

الكائنُ يشقُّ طريقه في أثلام متاهةٍ يصنعها ويتخيلها ويهدمها في وقت واحد.. أماكن وأسماء وأجواء تهسهسُ مثل أجساد لامرئية.
ليندا تنبعث مع كل ظهيرةٍ في ظلال أحجار الفورم الروماني، تلوح مبتسمةً في الزحام وتحت ظلال أقواس النصر الخربة، وتتسع عيناها الزرقاوان بالعذوبة حين أقودها إلى متحفٍ يعرض أحجارَ العنبر الصفراء، فتقول مشاكسة :
".. وهل قطعت كل هذه المسافات لأشاهد أحجاراً .. مجرد أحجار؟ "
في أثلام هذه المتاهة لا يتردد سوى الصدى. ربما نسيتني الآن، فما الذي تفعله الآن بالصور، آلاف الصور؟
هاواي التي اختارت تعليم اللغات في جامعتها، وإختارت شواطئها مأوى، تقع تحت خط الاستواء، لا صيفَ ولا شتاء، مطرٌ وصحو متواصلين تحت غيوم بيضاء. ليندا الآن قاربٌ ذهبي جانح تتناثر حوله صورُ آلاف الرجال الذين غادرتهم على شواطئ مجهولة. صورٌ يتقاذفها الموجُ ، الموج نفسه الذي تهتدي به.
تقول في أحد أزقة روما، ونحن في طريقنا إلى كنيسة سان بيترو:
" لن أتزوج، لأن من أحب موزع في آلاف الرجال.."

وفي متحف فلورنسا أوقفتني أمام لوحة فينوس الطالعة من زبد البحر على محارة:
" انظر"
ومرت بأصابعها على استدارة وجهها البيضاوي:
"إنها تشبهني.. هكذا يقولون.."
قالتها بتهيب وأنا أنقل عيني بين وجهها ووجه فينوس، وتنتابني رغبة احتضانها فجأة وسط العيون المحيطة بنا في القاعة الخفيفة الضياء.
رغم وضعية خط الاستواء، كان ألمها هائلا لا يُدرك حين تمنتْ أن تدخل الحمام معي وتحممني بيديها. كنتُ أنهيت مضاجعتها صباح الأحد على مقعدِ الصالة الطويل، وظلتْ تصرخ.. وتصرخ إلى أن انتهى كل شئ .
قلتُ بلامبالاة:
" كما تريدين"
فأبعدت عينيها غاضبة.
حاولتُ أن أعتذر بركاكة لغتي الإنجليزية، إلا أنها أصرتْ على أن لغتي كانت دقيقة، وجاء تعبيري عن عدم رغبتي كاملا.
صمت..
ثم:
"حسنا.. وصلتُ الذروة حقا .. ولكنني توقعتُ المزيد**!**"

III صوفيا

أية أرض عاصفة تجوب الآن
يا طفلي الوحيد
صياد اليعاسيب؟
(تشيو)

هنا يلمس الإنسانُ حافة الميلاد بيدٍ وحافة الموت باليدِ الأخرى، ليس لأن أشجار الكستناء العالية تزهر كل عام وتُسقط ثمارها، بل لأن الأطفال كثيرون إلى درجة لا تصدق، والعجائزُ حاضرون أكثر مما ينبغي.

في هذه الوضعية من السهل اختصار الحياة إلى أفعال إيمائية صامتة متواصلة، ثم تجيء النهاية، ويموت الناسُ ملوثين بالسكون مثل أغصان جافة.

للحياةِ أهدافٌ أخرى ربما لا نعيها. تعتقد أناهيد مثلا، أن العجائز هنا يصرّون على عدم الموت لا لشيء سوى منع الأطفال من احتلال مقاعد الترامفاي.. وإلا هل هناك سبب آخر لهذا الحشد من الكائنات النحيلة الدامعة والمهتزة والمتباطئة في سيرها؟

غسان لا يعرف شيئا عن الأسباب، أو هو لا يفكر بها، كلّ شئ يبدو له مثيرا للفضول، بدءا من ألعاب الكمبيوتر وحتى قامة ابنة الجيران مارتينا، مارتينا التي تساويه في العمر وتفوقه بطولها الشمالي، مارتينا ذات الشعر الكستنائي الذي يغمر خديها دائما.

يروح غسان ويجئ إلى الشرفة منتظرا رؤيتها وهي تنحدر إلى الحديقة المشتبكة الأشجار أمام المبنى ذي النوافذ الألف، فتعبر الشارع يسبقها كلبها الضخم بشعره الأحمر الناعم.

هنا في صوفيا ليس من دفءٍ أشد حنانا من هذا الاسم نفسه. الشتاءُ لا يعقبه إلا الشتاء. الأشجارُ السوداء العارية المتفحمة من أثر الدخان تسكن تحت الخضرة الطافحة فقط، ثم تنفض عنها هذا الربيع العابر وتعود إلى صمتها الشتائي القاتم.
يفتقد الإنسانُ الرائعَ والجميلَ. هما أقصر عمرا أو هما بلا عمر أو هما لا يستحقان هذا النوع من الأعمار العابرة. اعتادت القبائلُ السلافية منذ أن كانت تقيم حول نهر الفولغا، وقبل أن يجتاحها المغول وترسلها جحافلهم إلى هذا الشتاء الكامد، على إرسال الأذكياء والأحياء أكثر مما ينبغي إلى السماء، لأن من حقهم أن يخدموا الآلهة لا البشر.
إذن في تلك الدقائق اللامرئية، دقائق مادتنا العجيبة بأنهارها وشموسها ونبضات قلوبها. لا تتواصل الأزمنة، ولا تتلاحم الأمكنة، إن لها مساراتها الخفية، انتقالاتها التي لا نعي. توزعها. وجودها المتزامن. أي الروعة، والجمال الذي نصطاده من المستقبل.
أقرأ رواية جوستين، تلك اليهودية الاسكندرانية الغامقة مثل تفاحة مشوية، تلك التي اختلق اسطورتها الانكليزي لورنس داريل، وأفكر بإعادة صياغة روحي مجددا.

ثلجُ صوفيا الأبيض يغطيها، يغطي أطرافها المعتمة. كلُّ شئ يبدو حجرياً، همَّ بها وهمّتْ به، وتحجّر الجسد. تماثيل وعمائر والناس أقزام تسعى. أرجاءٌ قاتمة، أرض مثل أطراف الروح، شهوةٌ محرمة إلا بالروح تحت سناج مداخن القطارات الثقيلة.
يطفو نثارُ الثلج الأبيض، يتساقط على البشر والأشجار ونصب ديمتروف الملطخ بالشتائم، وعلى كل اسم يعلقون في نهايته الواو الممدودة والفاء بلا سبب.
بافلوف، صاحب الشقة المهترئة، يصرّ على الاحتفاظ بكل كتبه الشيوعية، وحتى المجلات النسائية الصادرة قبل نصف قرن، ويعلل الأمرَ بأنه يفي بقسمه. يصرّ أيضا على الاحتفاظ بخزانة خشب الجوز التي بهت لونها البني اللامع وقارب لونَ التراب، مغلقة على ثياب زوجته الميتة منذ عشرين عاما. طويلٌ يبدو أنه يواصل الامتداد مع سنواته الثمانين. يميل إلى الأمام قليلا وهو يشرح لماذا لا يحبّ شربَ شئ لا يصنعه بيديه، ولماذا رفض كل امتياز في الماضي. استعجلناه ليوقع على عقد الإيجار خشية أن يموت في أية لحظة. كان هذا باقتراحٍ من جارته الخمسينية جالا التي يحيط السأم بكل أطرافها.
النساءُ وحدهن سعيدات ربما بأسمائهن، لأنها لا تنتهي بالواو الممدودة والفاء. بل بفتحة ممدودة دائما، ولأن الكثيرات ربما واثقات من أنهن سيرقدن في خزانات خشب الجوز محاطات بهذه الرقة البافلوفية إلى يوم يبعثون: فساتين الماضي، النظارات الطبية، الأقلام وأداوت التجميل الجافة ودفاتر اليوميات. الرجلُ ثقيل والمرأةُ خفيفة، ومؤلم أن ترى النساء بسيقانهن البضة يسرعن تحت إلحاح إكراه عنيف للحاق بالترامفاي، أو للنجاة بأنفسهن حين ينطلق الرصاص فجأة في الأزمنة المضطربة.

الشوارعُ البريئة والحدائقُ وبواباتُ المدارس يلفها الصمتُ تحت أنظار الجنود العراقيين المنتشرين في كل الزوايا. ثلجُ صوفيا وصيف أغسطس. كلُّ شئ يحدث في زمن واحد. تتحول الكتبُ إلى أنيةٍ حجرية بلا رنين، ووجوهُ الأصدقاء إلى زهورٍ طافية يبتلعها تيارٌ معتم يندفع إلى الماضي. وتحملُ الحقائبُ أشياءَ عزيزة: دببة قطنية وكتبا للأطفال. عصفورُ الكناري وحده في آخر الصالة الخالية، نلتفتُ إلى الماضي بين لحظة وأخرى خشية أن يختفي فجأة. لا يتردّد في الهواءِ سوى خطابٍ أبله عن الخاسئين، ودخانِ الشاحنات المحترقة، ومشهد الجنود المذهولين أمام مخازن الألعاب والأغذية ورفوف الجمعيات التعاونية، والشوارع التي توقفت ولم تعد تشير إلى أي اتجاه.
بريةٌ شاسعةٌ ونجومٌ بلا عدد على طريقٍ صحراوي. الطفولةُ أفقٌ مفتوح. بشرٌ من مختلف الأنواع ينتظرون مجيئي. يا للسخرية. في هذه السن، وبهذا المعطف الذي يلفني، وهذا الغليون تحت النجوم، وهذا السائق الذي يستعجل الوصول ليعجل بالعودة.. فالوصول. ما الذي تبقى؟ قصيدةٌ أو أغنية. كلُّ شئ يبدو منتزعا من إطارٍ مجهول.

التقيتُ بالحلاج على غير انتظارٍ في أحد أحياء بغداد القديمة، قريباً من الجسر، في العمق حيث البيوت الخلفية المهترئة التي لا تظهر. باعةٌ أمام عرباتٍ ، ذبابٌ، أطفالٌ نصف عراة، ومحلاتٌ لتصليح الزيوت نصف متآكلة، مطاعمُ رطبة تتصاعد منها أبخرةٌ وعتمة، وتلمعُ في ظلامها وجوهُ الآكلين الجافة.
كنتُ جائلا مع خيري بلا هدف، فإذا لافتةٌ نصف مطموسة وسهمٌ يشير إلى قبر الحلاج. أي حلاج هذا؟ وفي هذا الوقت بالذات؟ أهو نفسه ذلك الذي صلبوه فجاء إليه أحد تلاميذه يسأله عن موعد النيروز؟
نواصل الدوران إلى حيث يقودنا سهمٌ، فآخر، نتوقف عند هذا المنعطف وذاك. سهمٌ آخر وآخر بلا نهاية، والأزقةُ تضيق، إلى أن نتوقف أمام مشهد قبة طينية ملطخة بالأزرق الباهت تلوح من بعيد وحولها من كل الجهات بيوت منخفضة تحيط بها:
"لابد من مدخل، فلا يعقل أن يقام مقامٌ ويُسجن هكذا"
سيكتب خيري في بغداد قبل أن يتحوّل إلى قوقعةٍ على أحد منحدرات عمان صوراً متلاحقة ولاهثة. يحاول أن يمسك بالضجيج وهدير الطائرات والانفجارات. مئاتُ الصفحات تحت ضوء الشمعة.. دفاتر..دفاتر..
"كان من المحال أن نظل في الملجأ الآمن تحت الأرض، ملجأ المحظوظين. في العتمة كانت العيون تتطلع إلينا بعدوانية واضحة، عيونٌ تخطط لاغتصابات سرية ومتع لا أشكال لها.."

مع نهاية الدفتر السادس، وقريبا من حدود الفجر سيدوّي انفجارٌ قريب، ويقتلع البيتَ المجاور، ويحطه حطاما. دفاترٌ مدرسية على أسلاك الكهرباء. رجلٌ مجهول يحدق في الحطام، أو الناس الذين اختفوا ويردد ذاهلا :
" ذهبوا.. اختفوا.. لم يعودوا موجودين"
وأبدى حارسُ المقام الذي جاء به الأطفالُ إلينا أسفه أو ضجره لأن لا أحدَ يزور المقام منذ زمن طويل. وأضاف وهو يخرج المفاتيح:
" كان يجيئنا أناس من الهند وباكستان وحتى أوروبا والآن لا أحد.."
في الداخل ما يشبه باحةً مسقوفة. لا يحمل الحارسُ توقيرا لا لصاحب المقام ولا للزائرين. وأحسستُ أنه يسخر منا وهو يتباطأ في سيره ويقف جانبا منتظراً أن ينتهي من مهمته الثقيلة.
في أيام الدراسة الجامعية قيل لنا ونحن نهبط إلى سردابٍ في مسجد مهمل، هاهنا غاص واختفى أحد الأولياء الغابرين منذ زمن بعيد. كان الحارسُ يتربع على الأرض أمام الباب وأمامه مربعٌ من الرمل خطَّ فيه دوائرَ وخطوطاً مستقيمة، سأله طالبٌ جزائري نصف يهودي:
" ما تفعل لو خرج الرجلُ من سردابه الآن؟"
فتطلع إليه الحارس بوجهه المجدور وعمامته الخضراء البالية وضحك:
" أضربه بالنعال.. وأضربه إلى أن يعود إلى زمنه"
على بوابةِ الضريح دعاءٌ. والعجوزُ المتجهم الملامح يفتحه ويتنحي جانبا. في الداخل يمتدُّ القبرُ عاليا وثقيلا يغطيه حرير أخضر، ساكناً، عاديا، لا يختلف عن أي بناء طيني من الأبنية المحيطة به. توقعتُ رائحة بخور، وخيالات، وشيئاً من نقط الدم الذي توضأ به الحلاج. لا شيءَ من هذا.
العجوزُ الذي أتخيله حلاجاً في دكانه القديم يتحدث لعدد من الفضوليين المفتوحي الأعين والأفواه، مشغولٌ يتطاير القطنُ من حوله.

كلما اتسعت الرؤيا ضاقت الأمكنة، والعكس صحيح، كلما ضاقت الرؤيا اتسعت الأمكنة، وأصبح الزقاقُ مركز الكون.
أقول لصديقي:
" أنتَ مغمورٌ إلى درجة مرعبة بثقل هذه المطاعم والأسواق الموحلة، وروائح المقاهي العطنة.. بغدادَ الصحف والمطبوعات والبيانات الخاوية"
فيرد خيري باستياء:
"وأنت خفيفٌ حتى العدم"
يقترب من قوقعته.
وأضيف:
" نقطةُ أرخميدس تقع خارج كلِّ هذا"

خارجَ أسراب الجنود العراقيين بملابسهم الرثة، ووجوههم البائسة والحائرة تحت شمس أغسطس المفاجئة. خارج الأحياء المهترئة، والناس الذين تحيط بيوتهم المتداعية بضريح الحلاج، والصحفيين ذوي العيون الباهتة، ومذيع التلفاز المتأنق الذي يهدد بالبيانات الهاذية بغضب السماء، وانتقام المؤمنين، وسوء مصير الكفرة والأشرار.
هذه النقطة العزيزة التي لو اكتشفها الإنسان لحرّك منها الكرة الأرضية لم تكن موجودة في أي مكان.

ثقيلٌ هذا الطريق الصحراوي إلى عمّان لأنه لا يفضي إلى مكان، ثقيلٌ هذا الليل المقتطع من آلاف الليالي وملايينها، وهذا السائق الثرثار، وكلمة التلميذ أمام حلاجه المصلوب "نورزنا". ربما كانت سخريةً ودعابة أو جرحا غرسه هذا الأبله في جسد الشيخ المخبول.
أودُّ أن أتطلع إلى كل هذا، أتواضع مع الثقيل فأراه في مكانه، وأبحث عن الأكثر شفافية. الأحرى أن تكون الأبعاد هكذا: الثقيلُ فالشفافُ فالضبابيُّ فالمعتمُ مرة أخرى حتى آخر مجرة في السماء. بدأ الكونُ بومضةٍ خارجة من العتمة، وتدفق نجوماً ومجراتٍ وكواكبَ وآلاف الشموس والسنين الضوئية، كلٌّ يتجه إلى شفافيتهِ ثم إلى ضبابهِ فظلامهِ شيئا فشيئا. هذه فكرةٌ ارتكازية ربما تصلح لتحريك الكائنات، لفهم انتقالها من الصفر إلى الواحد، فإلى الصفر مرة أخرى. التعدّد وهم.

تسهر الكاهنةُ وصاحبةُ الحانة وربما تسهر جين الآن، وتسهر مئاتُ الساحات التي غادرها الهيبيون للريح والمطر الخفيف، وتسهر الطرقاتُ الصحراوية التي تختفي ربما حالما نغيب عنها.

يتنبأ عرّافٌ بامرأةٍ شعرها حالك السواد، ليلٌ طويل:

"في تميمةٍ معلقة بين ثنايا شعرها أرى روحكَ معلقة.. سجينة.. أرى شرودكَ الدائم، وغيابكَ.. أنتَ غائبٌ، شبح.."
تلك المرأة.. ذلك الليل.. ليل شعرها.

قرب محطة الترامفاى أحدّقُ بالأمهاتِ ذوات الجوارب الثقيلة، بائعاتِ الأزهار عند الزاوية، بهذا الحشدِ من القبعاتِ والمعاطفِ والأنفاس والوجوه التي لا يُسبر غورها. كلُّ شيء يجيء ولا يكاد يذهب. مهما ذهب الناس، سيذهبون إلى مكان.
أحيانا يشفُّ ويصبح خفيفاً، يغمره شعورٌ تحت شمس واضحة، إنهم يفكرون به، يفكر بهم، يتذكرون أينما كانوا، يبادلهم اللعبة نفسها يتذكرهم.
الساحات! لعلها الآن في الثانية ظهراً لا تزال صاعدةً بين الأعمدة المرمرية المحطمة، بين الأنقاض، واثقة إنها ستراه في الظلِّ مستنداً إلى جدارٍ هو كل ما تبقى من غرفةٍ رومانية، مثلما حدث في المرة الأولى.
تقولُ أنها تعود إلى أوروبا كل سنة: حقيبة كتب ضخمة تتركها في محطة القطار، رافعة نهدين حمراء، جسداً يتدافع مثل موجة ذهبية.
لابدّ أنها تتجول الآن بين أحجار الفورم الروماني، تتطلع بطرفِ عينها إلى المكان الخالي، أو تقف أمام نافورة تريفي مساء، أو تعود إلى غرفة البنسيون الصغير بعد جولة إرهاق لذيذ، ومرور بمطاعم الوجبات السريعة حين يزدحم المساء بالعابرين، فتقول لها صاحبة البنسيون النحيلة.." مهنتكن هذه متعبة.. يالك من مسكينة!"
فتصرخ ليندا:"ماذا؟ إنها تحسبني عاهرة!".

أحيانا يشفُ، يصبح خفيفاً حين يراكِ مغمورةً بإيقاعات البيانو في الصالة الواسعة ، بثوبكِ الطويل ، وهالةِ الشعر السوداء ، والحزنِ الذي لا تفسره المرئيات .

يلهو الطفلان، يتراكضان ويغوصان في الثلج الناعم فرحين، غسان الذي أعطاه اسما علمانيا من دون أن يدري، ثم اكتشفَ فيما بعد إنه يعني حبة القلب، وجدٌ غساسنة الشام، أي الشمال، أي حضارة النبيذ والمعابد، وأناهيد الآلهة الأرمنية أو الفارسية، وأخيرا نجمة الصباح العربية. أنهما مثقلان بالحضارات إذن. فكرةٌ فاتنة رغم طفولتهما أو بسببها ربما.

يلهو الطفلان بالثلج خفيفين. هما الآن بلا جنسية، أي بلا ثقل، بلا قطعةِ الرصاص التي اعتادوا إلصاقها بقاع دمية البلاستيك القديمة حتى تقف دائما كيفما ألقيتها، فلم تكن تستطيع النوم.
يستطيعان النوم الآن، وهو أيضا. لم يعد يسكنه ذلك الثقل.

ليندا:
"لأول مرة أصادف فلسطينيا لا يهتم بالقضايا السياسية.."
كانا يقفان أمام لوح رخامٍ متآكل رُفع وسط ساحة عامة، حفروا عليه أجسادَ جنود يتدافعون إلى معركة، فعلق ساخرا:
"الأغبياء.. كلُّ هذا لخداع البسطاء.. أيّ مجدٍ يركض نحوه هؤلاء الهالكون؟
وتساءلت الإيطالية "كيف تتوقع أن تُحل القضية الفلسطينية؟"
فقال"بالبيولوجيا.. البيولوجيا وحدها ستحل المشكلة في النهاية"
لم يكن طيلة حياته يملك إلا ذلك النهار وذاك الليل. الحياةُ لا تؤجل أبداً. ليست مشروعا للتنفيذ في يوم ما في مقبل الأيام. إنها الآن.
ويتذكر الآن أنه كان يعيش حياةً ويتوهم غيرها، أو ينتظر غيرها.
تغوص أقدامهما في الثلج، ويغوصُ هو في إحساسهِ بمتعةِ البرد العميق وخفةِ ندف الثلج المتساقط، ومشهدِ التماثيل الجرانيتية السوداء اللامعة. بعضها لا يزال على قواعدهِ، وبعضها قلبوه، فغاص نصفه الجانبي في الثلج الأبيض، أو غاص وجهه وصدره، وبدأ الثلج يطمر ظهره اللامع.
يلتفتُ إلى ممراتِ الحديقة الخالية، شخوصٌ تتراءى من بعيد، امرأةٌ تتباطأ في سيرها مع طفلين بحجم دميتين تتحركان. أنوفٌ حمراء ومعاطفُ تصل حتى الكعبين. لا أحدَ يرغب بالحدائق المعتمة الآن، الحدائقِ الباردة تحت سماءٍ من ضباب. المسافةُ إلى كل شيء معتمة وسوداء لولا هذا البياض الهادئ في تساقطه.
حين كتب موظفُ المطار أمام أسمائهم من دون أن يسألهم.. "بلا جنسية".. أعجبته وأدهشته هذه البساطة واللامبالاة. بساطةُ انزياح قطعةِ الرصاص من قاع الدمية، لتصبح خفيفة تلهو بها الريح.

كنتُ أحبُّ الطائرَ الحجريَّ الملون، طائرَ الفخار الذي نسيتُ وجوده إلى أن ذكرني به صديق وهو يفسّر قصيدة أغنية الطائر الحجري. أشارَ إلى وجوده في الماضي، في طفولته، هو الطائرُ الذي كنا نشتريه أطفالا ليختزن قروشنا القليلة.
أدهشتني الإشارة والتفسيرُ؛ هل كان رمزاً؟ وهل كانت القصيدةُ سفينةً، رمزاً للعودة؟ لم أكن أعرف أنه موجودٌ في عمق طفولتي أيضا، ساكنٌ ربما حتى هذه اللحظة في زاوية بيت قديم ..لا .. ربما تحت شجرة أو أصل جدار.
البيوتُ تغيّر ساكنيها وأشياءها. تتهدم أو تختفي، وكذلك الطرقاتُ التي تقود منها وإليها. ربما كان طائراً في عمق طفولته، وظلّ محلقا معه، يعلّمه الكلام ، يتنبأ عنه، يقوده إلى أماكنَ اكتشفها في أحلامه، لهذا تذكره. يبدو أنني نسيته، ربما لأنه في لحظةٍ ما، وعند منعطفٍ ما أو أمام رعبٍ ما، توقفَ عن التحليق وعاد إلى حالته الحجرية في عمق الماضي. تركته مع ما تركتُ من أشياء. تؤلمني فكرةُ الطائر المفقود، أغنيته التي تحجّرتْ، وتفرحني في وقت واحد معاً.

عند النبعِ يلتقي صيادٌ أو إنسانٌ براري بالكاهنةِ ذات الشعر الأسود الطويل، فيغادر أيائله المندهشة، ويقع عليها طوال ستة أيام بلياليها، فتعلّمهُ حضارةَ الجسد، تأخذ بيده مثل طفلٍ ليصنع المآثر العظيمة. تجيء الكاهنةُ، لا تعلمه حضارةَ الجسد، لا تقوده مثل طفلٍ، تتوقف عند النبع، تتعرّى أمامه، تحدّق فيه، ثم تردُّ عليها ثيابها وتغادر. يحاولُ اللحاقَ بالأيائل وحيوان البرّ، تخونه قدماه. يودُّ لو يعود إلى برّيته ويرمّم هذا العطب.

IV روما

في الحميمية التامة للأمكنة
أرتمي على السرير في تماثل تمثال
على قيدوم السفينة
(جويس كارول أوتس)

قبل أن يسافر ناجي إلى لندن حدثني عن مفاجأته الجديدة: الرسم بمادة النفط المعتمة. اللوحاتُ متناثرة على الأرض. بعضها يستند إلى جدار الغرفة. قاتمةٌ تتخلل حوافها إشراقةُ فجرٍ برتقالي. بعضها بنّي اللونِ يبزغ منه لونُ الأرجوان. لم تكن نفطاً بالمعنى المغلق للكلمة، بل شيئا آخر. تدرجاتٌ لونية تتوالد من كتلةٍ عمياء مبهمة. وجوهُ الناس تحمل شبهاً بوجوه رسومه الكاريكاتورية، إلا أنها عميقةٌ ونائيةٌ وحزينةٌ أكثرَ مما ينبغي. أكثرَ شبهاً بأيقونات القديسين.
أمسياتٌ كثيرة تمرُّ لا نمنحها ثقلها، لأن لنا أيضا حماقاتُ البراءةِ بأن في الغد سيكون متسع، بأن الجميلَ لا يحتاج إلى عبادة ربما، أو أن الصدقَ والنقاءَ ليسا بحاجةٍ إلى أسوار. لم نكن نسوّر أنفسنا، لهذا سيتساقط بعضنا بلا ضجيج.

"قطرُ" شريطٌ ضيقٌ من الأرضِ بين عتمةٍ على الجانبين. فجأة ينتبه غالبُ ونحن نسير:

"في القصص القديم، يخرج الإنسانُ باحثاً عن طعامٍ طوال يومه، ولايجد، ولكنه يعود في آخر النهار إلى بيته.."
يشدد على كلمة "بيته".. نعم.. كان هناك بيتٌ للإنسان دائما.. في العصور القديمة.
غالبُ في الخمسين تقريبا، وبلا بيت تحديدا، بلا خيط يقود إلى خارج أو داخل. ناجي وغالب، رسام وكاتب، نجد أنفسنا قي مواجهة بعضنا بعضا في أحد المنعطفات. لا ندري من أين جئنا، لحظاتٌ، ثم يتجه كلٌّ إلى المنعطفِ التالي حاملا ذكرى ربما، خيالا، جرحنا الذي لا شفاء منه.

الفورمُ الرومانيُّ صيفا. خضرةٌ بين الشقوق. نسيمٌ بين بقايا البيوت. ليندا تسيرُ بين الأعمدة المحطمة وما تبقى من أساساتِ الحمّاماتِ الرومانية. الرياحُ القديمة، الرياحُ نفسها، لا تزال تتردد بين الزوايا. وتعلّق فتاةٌ إيطالية:
"سطوركَ هذه تحمل الفكرةَ الفاشية نفسها.. الرياحَ نفسها.. الروحَ نفسها"
"ألا ترين أنني أتحدثُ عن شيء آخر.. عن الرياحِ التي تبقى بعد هزيمة كل المدائن؟"
"هذه فانتازيا، لم أكن أعتقد أن العرب لديهم قدرةً على الفانتازيا"

تستند ليندا إلى بقايا جدار، للحظاتٍ ثم تواصل سيرها بين حطام الصخور. طويلةٌ، شقراءُ، نهدان ريانان، ظهرٌ عار، وبنطلونُ جينز قصير حتى الركبتين الذهبيتين. لا يتوقف فخذاها عن الحركة، تواصل صعودها بين الحطام. لم تلتفت إلا التفاتة خفيفة. أي لم تعرفني بعد ولم أعرفها. لا أتخيلُ أن في الزمان متسع. اختفى الخيالُ، أو لا مكان للخيالِ منذ أن جئتُ إلى روما. ها هي حقيقةٌ لم ألمسها بعد ولم أعرف ما هي.

الشقةُ مزدحمةٌ بطلبة إيطاليين. في الصالةِ طاولةٌ ونبيذٌ. فتاتان أو ثلاث، وشابٌ يقول أن لحيته الصهباء تشبه لحية المسيح. جاء من قريةٍ نائية إلى جامعة روما للدراسة مع كيسٍ من الخيش وبنطلون جينز واحد يظل ينتظره عارياً إلى أن يجف على حبل الغسيل.
تقول ليندا:
"أشفقْ عليه.. لا تسخرْ منه"

تضحكني طريقةُ نطق الكلمات الإيطالية، فأشير إلى الأشياء وأسمّيها بالعربية مع لكنةٍ إيطالية :
"انظر.. إيطاليتكَ سهلة يجيدها كلّ إنسان"
مسيحُ اللحية صغير السن، يهتم للحظاتٍ بمعرفة رأيي ببوذا وغاندي. وفجأةً تسألني شابة إيطالية:
"ما معنى الحياة في نظركَ؟"
فأقول ببساطة وبلمحة خاطفة التقطتُ فيها الصالة والنبيذَ والوجوهَ المرحة:
"حفلةُ نبيذ، صخبٌ وضجيجٌ ومتعةٌ، ثم نتمتم في النهاية بالوداع، وكلمةٍ إلى الملتقى في الزمان"
يستاء المسيحُ ولا يعلق .
وتواصل ليندا صعودها في زمنٍ آخر.
وأنتبهُ إلى جدّة فكرتي عن الحياةِ والنبيذ:
"النشوةُ هي ما يجعل الساهرين كلا واحداً. يضحكُ ويتمتع بشيء غامض يتجاوز حدودَ الوحشةِ والقلق. لا شيءَ في هذه اللحظة يستطيع اختراقَ الوجود، وأمانٍ أننا معا"
النبيذُ هو ليندا ونافورةُ تريفي وأزقةُ روما وكنيسةُ سان بيترو والمطرُ الخفيفُ على شاطئ البحر، وتلك التي سألت.
تعنّفُ جين ذهولي بعد عدة أقداحٍ من النبيذ في الفراش. جسدها ينتظر عودتي. وأكتشفُ أخيرا أن الحياة لا تتجاوز حفلة نبيذٍ أو هي حفلةُ نبيذ:
" أنا نادمة لأنني سمحتُ لك بهذا القدر من الشراب يا صغيري"
تأخذ مفاتيح سيارتها وتتردد قليلا.
" ألا ترين أنها فكرة ارتكازية، يمكن أن يستند إليها الإنسانُ في أي مكان يكون فيه وفي أي زمان ليفهم الكون لا ليحركه؟"
"أنتم فنتازيون فعلا أيها العرب"
"أو أنتم مخربون .. قوليها ببساطة"
تتأفف شابةٌ أخرى مرهفةُ العينين اسمها ستيلا أي النجمة:
"ما هذا؟ فينو .. فينو أليس لديكَ غير الفينو؟"
لم أشعر برغبةٍ بهذه النجمة. وتوقفت عن مراقبة شفتيها المنفرجتين وضوء عينيها الخافت.
أتوقف عن الكتابة والقراءة، فتتساءل الإيطالية:
" لماذا لا تواصل القراءة؟"
"لأن هذه النجمة تجعل الحياةَ صعبةً والكتابةَ عبثا. في هذه اللحظة الخالدة التي يقبض فيها شاعرٌ على نبضٍ متوحد.. في هذه اللحظة.. هي بالتأكيد لا تفهم ولن تفهم هذه التي تشبه نجماً منطفئا كيف يمكن أن توقظ الكونَ فينا جرعةُ نبيذ"

طبقُ اسكدنيا برتقالية لامعةٌ مغسولةٌ يضعه شارلُ أمامي. يسند ظهره إلى مقعدهِ، ويروح في ارتخاءٍ عميق وشعره المبعثر يكاد يغطي عينيه.

يجيءُ بالسلّم إلى حديقةِ بيته، يساعدني على التقاطِ أوراق الكرمة الطرية الخضراء قبل أن تغيب الشمس.

أكتشفهُ في شوارع نيقوسيا ذات صيف، وألخّصهُ بهذا المشهد المتقاطع: يتعمّدون بالماء، ماء الأردن أو نبع صافيتا أو أي نبع كان، بحضور الأقارب والكاهن والأصدقاء وممثل الدولة والإشبين. في هذا الوقت بالذات أراه يتناول صحيفة "الحياة" يتصفحها نصفَ مبالٍ. يعيدها إلى مكانها في واجهة الكشك في ساحة "الوثيريا"، ينطلق بسيارته القديمة عائدا إلى البيت ليظل مع طفلهِ الصغير حتى منتصف الليل. يصرُّ شارل على أن يتعمّد بالماء وحيداً.

ها أنا في العتمةِ المائلة أكتبُ مشهدا مضاءا: نافورةُ تريفي، بركةٌ ينصب فيها الرذاذُ وتنعكس صورُ الجالسين والواقفين عند الحواف العالية، ينتشر كثيرون كأنما الخلقُ في حالة نشور. ساهمون وضائعون وصامتون وضاحكون أمام المياه المتدفقة على التماثيل، عيونٌ قاتمة، أعضاءٌ لامعة تحت رشاش المطر.
الوقتُ مساء، روما في الساحات، على الدرجات الأسبانية، ورسامو الكاريكاتورا غادروا الساحة منذ زمن طويل. مطاعمٌ هادئة. نبيذٌ رخيص، وغرف تخلع فيها الهيبياتُ الآن القمصان الخفيفة. ساحةُ سان بيترو مقفرةٌ، يطلُّ عليها من الإفريز الدائري العالي حولها مئةُ تمثال صامت لقديسين وقديسات غارقين وغارقاتٍ في رخامهم ورخامهن الذي سوده الدخان.
تقول ليندا:
"من يقذفْ بقطعةِ نقود في الماء ويتمنى، أمنيته مستجابة.. هكذا يقولون.. تعال نجرّب"
نقف متجاورين في ماء البركة الضحل، ندير ظهرينا للنافورة وتماثيلها، تلقي قطعتها، ألقي قطعتي.
لا أعرف ماذا تمنت، ولا أسأل. إلا أن أمنيتي كانت أن أحظى بليندا في هذه الليلة المائية، في عاصمةٍ أتخيلها تطفو في الزمان، وتكاد تختفي بين لحظة وأخرى.

مقهى رصيفٍ في مكانٍ ما تحت مظلةٍ حمراءَ ذات ظهيرة غائمة. المطرُ رذاذٌ والناسُ مظلاتٌ، وفي زاويةٍ ما تتضح السطورُ عن حديقةٍ غائمة، رياحينُ ، مطرٌ مثل هذا. أصدقاءٌ وزجاجة "راكي".
ويقول الكابتن "كرياكوس" الشبيه بقرصان وهو يستلقي على فراشه :

"العني يا أبي المقدس"
ويبدأ بالتوصية، فيوصي بالنبيذِ لصديقه الباشا التركي، وبتمثال العذراء الجبسي لـ "بنايوتيس" يهوذا القرية ليأكله، ثم يغطي وجهه ويستدير إلى الجدار:
" عليَّ لعنتكَ يا أبي المقدس"

7 نيقوسيا

في كل البلاد تكتشف الأمكنة والناس،
إلا إن اليونان
تمنحك اكتشاف ذاتك
(لورنس داريل)

شعاعٌ نحيلٌ من الضوء ينحدر مستقيماً من كوّةٍ في زاوية السقف البعيد، يصل إلى الرواق بين الزنازين. الحمامُ يطيرُ، يتناسلُ، يهدلُ فوق مشمّعٍ يعزل سماءَ الرواق عن السقف العالي، حفيفُ الأجنحة يحيرني؛ هل ما فوقنا سماءٌ أم أعشاش حمام فقط؟
يصرُّ سوتيري، بائع الكلافتكو الساخن، على أن أصولنا يونانية. إمرأته الطويلةُ المتضخمة تعدّ القهوةَ وهي تولينا ظهرها. مفرداتهُ العربية أقل من أصابع اليدين.
ويعتقد القبطانُ الإيراني علي الشبيه بغاندي أنه يشعر بالحرية حتى بين هذه الجدران. إحساسهُ بالحرية لا تعلّقَ له بكل ثقل العالم. يودُّ أن يقدم اقتراحا إلى الأمم المتحدة بإفراد جزيرة خاصة يتجمع فيها اللاجئون من مختلف أنحاء العالم، ويؤكد أن مجتمعهم سيكون مثاليا.
فوجئتُ أنني مقيمٌ بلا إقامة حين طرق الشرطيُّ القبرصي الباب، وتناول جواز سفري:
" أنتَ تحمل وثيقة سفر وليس جوازا"
وطلب مني الشرطيُّ السمينُ وضع كل ما أحمل على الطاولة أمامه، القلم والولاعة والمجلات والساعة، وأخذني إلى زنزانتي تحت عيون القابعين أمام زنازينهم أو المتجولين في الرواق الطويل.
" جزيرةُ اللاجئين" يقول القبطان"ستكون مجتمعاً تختفي فيه الأنانيةُ والتمييز لأن الكلَّ هارب من عالم الأنانية والتمييز".
يتحدثُ مسندا ظهره إلى الجدار، جالسا يمد ساقيه الرفيعتين أمامه. استراحةُ السجناء ما بعد الغداء أمام أبواب الزنازين.

مسعود لا يعرف من العربية غير لفظة اسمه. قبل بضعة شهور اجتازَ الخطّ الفاصل بين القطاع التركي واليوناني هارباً، وطلبَ اللجوء لدى نيقوسيا اليونانية، فاحتجزوه لأنه لم يكن كردياً بما فيه الكفاية كما يبدو. لا يتجاوز العشرين من عمره، ولا عبارة "مسعود كلابوش"، أي مسعود معتقل.

في بار "بابلون" يظلّ صاحبهُ الأشقرُ الطويلُ مستعدا للخدمة والإصغاء. شارل يتحدث عن معرفته القديمة بالبار وصاحبه، فيثير فضولي العنوان. نساءٌ موزعات وقوفا أو جلوسا. أقول لصاحبِ البار الخالي الذهن إلا من عدد الزبائن:

" أتعرف ما معنى بابلون؟"

"نعم .. تلك الحكاية عن برج بابل حين تبلبلت الألسنة، أنا سعيدٌ باجتماع كلّ الألسنة هنا"

"لا.. بابل كلمة عربية تعني "باب الإله"

"أوه.. عظيم.. ليكن باري بابَ الإله.. هذا أفضل. سأضيف هذا إلى معلوماتي.

حين أخذنا الحرسُ إلى الطابق الثاني بزنازينهِ المهجورة عبر درجٍ قذر لنطوي المشمّع، كانت الزنازينُ العلوية خالية. نوافذُ صغيرة في أعلى كل جدار. هنا نستطيع الوقوف تحت مسقط أشعة الشمس النحيلة المنحدر من الكوة. على حائطِ زنزانة أبيض لفظُ الجلالة بخط يميز النقوش التركية على الليرات الذهبية. على حائطِ زنزانةٍ أخرى وجهُ شابٍ متآكل بلحيةٍ خفيفة رسمه شخصٌ غائبٌ بأعقاب السجائر والقهوةِ والقليل من مادة كامدة اللون تشبه الدم المتخثر. من نوافذ هذه الزنازين العالية يدخل الحمامُ إذن، الحمامُ الذي أسمع رفيفَ أجنحته فوق المشمّع منذ أسبوع، ووراء هذه النوافذ يضجّ الآن شارع "مكاريوس" بالحركة والناس وشمس النهار.

"أنتم رومانسيون أيها العرب"

تقول ليندا وأنا أحتضنها على ساحلِ القناة الكبرى عند مرسى القوارب في فينيسيا.

في الفورم الروماني دعوتُها للغداءِ والنبيذِ على العشب بجانب بوابة منطقة الآثار المسيّجة. سألتها ما الذي ستفعله غداً وبعد غدٍ وإلى الأبد. ضحكتْ وقالت:

"دعنا في الغد وحده. هذا يكفي. غداً سأسافر إلى فلورنسا ثم فينيسيا وبعدها إلى ألمانيا بالقطار".

سألتها إن كانت تعلم كم أمضى الله في خلق الكون، فالتفتت:

"ستة أيام"

قلتُ:

"وكيف تريدين منا نحن البشر أن نخلقه في يوم واحد؟ نحتاج إلى أسبوع على الأقل. لا تسافري غدا، ولنبقَ في اليوم وحده، سنشاهد الشمسَ والقمرَ والكائنات وفصلَ النور عن الظلمة، ونقول أن ما فعلناه كان حسنا"
الأمواجُ تتلاعب بسقالاتِ المرسى، وظلامُ منتصف الليل الذي وصلنا إليه متأخرين يهبط بعيداً وراء القناة والقصور الفينيسية المضاءة. في الماءِ التماعاتُ أضواءٍ وارتجافاتٌ معتمة.
وافقتْ على أن ليلةً واحدة لا تكفي لخلق الكون. فتنتها الفكرةُ من دون أن تظهر استغرابها مستسلمة لعذوبة النسيم ونحن متمددين على العشب:
"أفكاركَ غريبة"
لم أعلق .
تأملتُ جانب وجهها وساقيها ببنطلونها الطفولي الذي ارتفع حتى ركبتيها.

تقول جين وهي تكاد تبكي:
"لا يا حبيبي.. لا.. الثورة خرافة .. أسطورة"
كان ذلك قبل أن ترحل إلى الهند لقضاء إجازة الصيف، وقبل أن تجتذبها سكينةُ ملامح بوذا. يضحكني مشهدُها وهي تركع أمامه مع أزهار جيرانيوم حمراء بردفيها الثقيلين وإحناءة رأسها الطفولي وخديها البارزين.

خارج بار بابلون الذي ابتهج صاحبه بالاكتشاف الجديد، وقف في منتصف الشارع أفريقيٌّ راسخَ القدمين، متمايلَ الرأس، يحرك يديه مخاطباً جمهوراً لامرئيا. كلماتٌ متعثرة نصف مفهومة، شتائم ربما.
"هذه أفريقيا في منتصف الليل"
قلتُ، ولم يضحك شارل الغارق في أفكاره.
"أفريقيا مترنحة في منتصف الليل بعد أن مرت ظهيرةُ العالم"
على الخطِّ الفاصل بين القطاع التركي واليوناني، تحت أنظار الأمم المتحدة، تنفتح النوافذُ المتقابلة في كلا الجانبين أحياناً، ويقف يوناني نصفَ عار ينهال بالشتائم على محمد، بينما يرغي ويزبد تركي في النافذة المقابلة ويرفع قبضته مهدداً المسيح وأتباعه.

"لا.. لستِ أميركية من أصل ألماني. كل هذا هراء واعتياد. دعيني أقدمكِ إلى نفسك، أعيد إليكِ الذاكرة. قبل ألفي عام أو أكثر جاء برابرةٌ إلى الشرق، شرقنا، واختطفوكِ أيتها الأميرة، وضعتِ بين قبائل البرابرة طوال هذه القرون. أنتِ لا تذكرين بالطبع، وها أنا أجدكِ.. أتعرفين أنني كنتُ أبحث عنك طيلة هذه السنين؟ الذاكرةُ لا ساحلَ لها، ولهذا وجدتكِ بين هذا الركام من الآثار الحجرية لا تعرفين من أنتِ"

"ولكنني لست أميرةً.. أو شيئا من هذا القبيل، مجرد مدرسةِ لغة إنجليزية في هاواي.. سائحة"

"صحيح، ولكن حين تعود الأميراتُ في المستقبل عادة، يعدن ضائعاتٍ تحت قوس انتصار قديم، في باحة بار، أو شارعٍ جانبي صغير ذات ظهيرة، ببناطيل جينز وحقائبَ قماشية معلقة على الأكتاف. الأميرةُ تعود متخفية لا يعرفها أحد على هيئة سائحة مرهقة مثلما أنتِ الآن، دعي لي الذاكرة إن كنتِ لا تذكرين"

محمد زعيمُ السجناء بامتياز. قضى مدةَ الحكم عليه، أربعُ سنوات في السجن البريطاني القديم، سحبوا جنسيته السويدية، فأعطاه القبارصة فرصةً ليتدبر أموره، وإلى أن يحين الأوان سيرسلونه على أول طائرة مغادرة إلى أي مكان.

تساءل الشرطيُّ اللطيفُ وهو يغلق باب الزنزانة بقضبانه الحديدية:

" أتريد شيئا؟"

"لا.."

ثمة خطأ ما في مكان ما في عقل ما.

كانت الزنزانةُ مغلقةً حين رأيته لأول مرة. أطلّ من وراء القضبان. وجهُ شابٍ بنظارات لامعة وشواربَ كثة وبنطلون قصير، مصارعٌ يتهيأ للعمل. سألني إن كنتُ بحاجة لشيء.

" لا"

وعاد مساء ومعه اقتراح أن أنتقل إلى زنزانته حتى لا أظل وحيدا. وقال الشرطيُّ القبرصي وهو يمر وراء القضبان ضاحكا:

"هذا فندق وليس زنزانة"

منتصفُ الليل ولا نزال متكئين على سريرينا المتقابلين. أكوامُ كتب. سندويشات.

ناجي بلامبالاة:

" لا تخش شيئا، أنا نحيلٌ وضئيلٌ، وحين تنطلق الرصاصةُ سأنحني وأتلافاها بسرعة"

الغابةُ هادئةٌ ، والنبعُ يثرثر، وأوائلُ الفجر تذكرني بأحلامنا، تسمّي الكاهنةُ كلَّ شيء، هذه الشجرة، وهذه الورقة، وهذه الزهرة. تقودني بعيداً عن الخيال:

" كيف تراني؟ "

النهرُ الذي صرتُ إليه يتدفق بين البساتين والغابات منحدراً باتجاه الفجر دائما:

" أراكِ لا زلتِ وراء البيانو عابقةً بالموسيقى، ولو سألتني ما أحب شيء إليّ لقلتُ أن أحتضنكِ في الماضي، أن يبدأ تساقط الندى ورقرقةُ النبع ومرورُ الرياح بين الشجر"

مشهدُ الطائر والزهرةِ والثمرةِ اكتمالٌ يمتعني مثل أغنية. تنمو الشجرةُ الصغيرةُ بتقطع وارتباكٍ ، وفجأة يسري فيها النفسُ بقوة، فتندفع ناميةً كما لو أنها اكتشفتْ في لحظةٍ قانونَ تكوينها واندلعتْ لتستكمل وجودها.

VI السفينة

لأنه لا يوجد مكان حيث يمكننا البقاء
(ريلكة)

يجئ حمدُ إلى الصحيفةِ من مكان مجهول، ويصبح مستشاراً لشؤون الجزيرة العربية والقارات كلها. كلُّ ذلك قبل أن يتحول إلى رجلِ أعمال يجوب القارات كلها فعلا، ولا يتذكر أحداً إلا حين يسكر وحيداً.
أجملَ ما فيه أنه يجيد الفرنسية، والبذيئة بخاصة، تلك التي كانت تحيل وجوهَ الفرنسيات إلى حمرة قانية في حفلات الاستقبال الرسمية، ويثير فضولهن هذا البدويُّ الذي يسمعن في صوته نغمة أزقة باريس المظلمة.
لم يكن هذا هو جماله الوحيد، فقد أضاف إليه ملحقَ البناية الذي يسكنه، وحوّله إلى ملتقى ليلي بدأ يرتاده حتى أصحاب الصحيفة يدفعهم الفضول.
"الكثيرون سقطوا في الفراغ"
هذه هي البداية المفضلة لحكاية جديدة يرويها حمد. وهذه المرة كانت صورةً عالقةً في ذهنه عن الهجرات الأولى: رجلان يغادران الليلَ الكهرماني لقريته الصحراوية باتجاه البحر، يتوقفان عند منحدر الكثبان حيث أقيمت قريةٌ للصيادين وتجار اللؤلؤ وأسواقٌ لعطور الهند وزنج أفريقيا، فيقيمان ويشتغلان بالتجارة معا. كانا شابين يتخذان طريقهما ليلا إلى الحي المعتم العابق برائحة التراب وعرق النسوة. وفي العتمة حيث تبدو الكائنات خرافيةً والنساءُ طيوراً آتيةً من غسق بعيد، كان للسرية متعتها. وأصبح الليلُ عادة يومية، إلى أن جلسا ذات يوم يحسبان كم يظلّ من كسب النهار، وكم يضيع في الليل. وتوصلا إلى أنهما إذا استمر بهما الحال هكذا، فلن يثريا أبدا. وهكذا اتفقا على دواءٍ موصوف يحميهما من شبق يأكل الروحَ كلما غابت الشمس وبرزت أجسادُ النساء في نهاية نفق النهار.
تناول الأولُ دواءه، وتردّد الثاني، توقف ثم ألقاه جانبا..
"هكذا انقطع نسلُ الأول وازدهر نسلُ الثاني. لم يبق من عمّي الهرم سوى الحسرة والوحدة وهو ساهم في ظلال الشيخوخة والعجز والخيال الجارح، وذكرى ذلك الحلف الذي عقده مع أبي لينقذا نفسيهما، فسقط وحده في الفراغ"

تغيّر البيوتُ أشكالها، تصبح مجازاً شعريا أحيانا، وكذلك الأسماء. كسرى لم يكن سوى ربطةِ عنقٍ عريضة ملونة على قميصٍ واسع مطرز بكل أشكال النبات وعينين تذكران بعيني ابن عرس ماكر يتطلع من وراء نخلة نحيلة. تفصلنا عنه طاولةٌ واحدة في مقهى رصيف. يصاب خيري بالفضول فيسأله إن كان فنانا. يتردّد كسرى، لا ينفي ولا يؤكد، يكتفي بإيماءة غامضة. ينتقل إلى طاولتنا، وما أن يستقر به المكان حتى ينطق بتساؤله الأول:

"ما الذي أفعله مع هؤلاء الذين يرمون قمامتهم فوقي؟"

حسبتُ هذا التعبير مجازاً شعريا، لأعرف فيما بعد أن حياة كسرى تخلو من المجازات والاستعارات ومن الفن حتى. سأصطدم به فيما بعد في أحد شوارع عمان المكتظة بين المسجد الكبير والملعب الروماني، ناحلا، مشعث اللحية بمعطف بال وبنطلون واسع والعينين الماكرتين نفسهما.

كان يتحدث عن واقعةٍ فعلية، فهو ينام ليلةً بعد ليلة في منور إحدى البنايات، ويصحو صباحا، فيجد جسدَه مغطى بأوراق الصحف وعلبِ المشروبات الفارغة.

يحدثني خيري عن عودته مع ابن عم له من القاهرة بعد حرب حزيران. لم يجدا شيئا يفعلانه سوى محاولة التسلل إلى الضفة الغربية والعودة إلى القرية المنسية بين التلال، أو بيع البطيخ في عمان. بكى ابن العم من فكرة بيع البطيخ. فقررا أن يغامرا ويتسللا إلى قريتهما مهما كان الثمن. إلا أن المقام لم يطل بهما، إذ وشى بهما قريب، واعتقلتهما الشرطة الإسرائيلية.

قال له الضابط:

"كم عمرك؟"

"عشرون عاما !"

ضحك الضابط ذو الملامح القوقازية وعلق وهو يقدم له سيجارة:

"جيلي من جيلكَ.."

ومن نافذة الزنزانة الأرضية شاهد المجندة الإسرائيلية مسترخيةً على مقعدها في الشمس وإلى جانبها بندقية. بنطلونها القصير يكشف عن فخذين ممتلئين.

كان هذا آخر مشهد التصق بذاكرته وهم يقودونه إلى الجسر. تركوه ليقطع المسافة إلى الجانب الآخر وحيدا.

في ملحق حمد بدا لي جعفرَ ببطالته المزمنة وشيوعيته البسيطة نسخةً من علاء الدين في انتظار العثورعلى المصباح السحري، ليحظى بجواز السفر والوطن وأيام النخيل مجدداً. كان هرمهُ المبكر يجعل يديه ترتجفان، وصوته يتقطع، وأجفانه تنتفخ بلا سبب.

نهارُ عصبيّ آخر تحسب أنه جاء لتوه من أطراف الربع الخالي سيراً على قدميه، فاستحق لقب "أبو جهل" اختصاراً للتحليل والتفسير. أما عامر المنكمش تحت نظارته دائما فقد حاولنا العثورَ علي لقب مناسب له، فاحتجّ نهارُ وثار:

" كيف تشتمون أبو ناصر؟"

همس أحدهم بجانبي:

" بهذه الثورة العنيفة تصورتُ أبا ناصر بطلا قوميا، فإذا هو هذا الذي يتكئ إلى جانبي نصف ذاهل"

يتولاني شعورٌ بأن الطالبة التي رسمها التلاميذ الثلاثة لا تزال في جلستها المنحرفة تلك في مرسم الكلية لم تغادره بعد كل هذه السنوات. غير معقول بالطبع. سقطت أمطارٌ كثيرة منذ ذلك الزمن، وازدهرت الدفلى أمام بوابة الكلية وذبلت ثلاثين مرة على الأقل، ولكن لماذا لا تظل هناك مادام خيالنا يثبّتها ولو على هيئةِ فراشة تحت زجاج الماضي؟ ولماذا هي بالذات؟ هل لأنها أول نموذج حاولت رسمه؟ أول اللوحات التي بدأت تستعصي على الاكتمال، فتترك نصفَ مرسومة هنا أو هناك..؟

لاحظ الأستاذُ المشرفُ أنني رسمتُ لوحتي في أوقاتٍ مختلفة، الضوءُ والظلُّ لا يتوقفان عن التنقل، ويصعب تحديد مصدر الإضاءة، لم أكن واثقا مما أرى، أو لا أريد أن أرى ما أمامي بالضبط. يئستُ من محاولة الأوضاع التي اتخذها وجهها على اللوحة، كنتُ أغيّر الوضعَ كل يوم، إلى أن انتهى الأولُ من الرسم وأعطاها بشرةً وردية ونحولا يشبه نحول القديسين، فتوقفتُ ولم أكمل اللوحة.

جيفارا يحوّل العالمَ إلى غابةٍ ممكنة، متاهةٍ يختبئ فيها البرّي والبدائي إلى أن تتهرأ المدينة، فيخرج من الغابةِ بأسمالهِ وجيشه القليل الملتحي ليسحق بقايا الجيش المتحلل. ويتذكر جورج بشغف كيف كانت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن ترافق أحد قادة المقاومة السرية الفرنسية في قبو تحت الأرض: "حين تلطخت بالنبيذ وكادت تقع على الأرض أمسكها بحنان مثلما يمسك الإنسانُ بشظية من روحه" يروي الحادثة بشهية عجيبة، ويفكر ربما مبتهجاً بذلك الموت الذي سيصادفه فوق قمة جبلية يغطيها بياضُ الثلج في منتصف ليل ما، إلى أن يغيبَ تحت النثار الأبيض.

العاهرةُ القبرصيةُ تلمس كتفي:
"يوناني؟.."
"نعم .."
"ولا تجيد اليونانية ؟ .."
"لأنني يوناني ولدتُ في جزر القمر ونشأتُ في أسبانيا.. ومن هنا شعري الأسود وبشرتي النحاسية"
"لغتكَ جميلة.. اطلبْ لي كأسا"
عددٌ من العجائز في مقهى يتحدثون عني ويطالبون أن أكتب وأكتب عن الكنعانيين:
"ليس لدينا أحد مثلك .. اكتب لنا"
سألتني امرأةٌ فنزويلية مطلقةٌ عصبيةُ المزاج عن بلدي، فقلت:
"لا بلدَ لي، أنا راحلٌ عبر المتوسط منذ مئات السنين ولم أصل بعد.."
"فينيقي إذن؟"
"ربما.."
في بار بابلون لا أدري كيف انفردتْ بي الفنزويليةُ لتصب كل عصبيتها على العرب، وأنا أتموّجُ مثل ريشة خفيفة مفكراً بمشهد جسدها القاتم على فراشٍ أرجواني تحت شعاع شمس صباحية. البحرُ قاتمٌ بلون الخمر.
سوتيري مترهلَ الجثة أصلعَ قليلا يتحدث وهو يقطع اللحمَ على خشبةٍ عريضة مخضبة بالدهن وبقايا العظام، بينما تواصل زوجته إعداد القهوة أمام النافذة:
"أنتم كريتيون هاجرتم إلى فلسطين .. يونانيون مثلنا"
وجهه محمرّ قليلا، مشمشةٌ أصابها النمش.
"..من هنا لوني النحاسي وشعري الأسود.."
تهزّ العاهرةُ القبرصيةُ رأسها غير مصدقة، وتطلبُ كأسا أخرى. منتصف الليل.
يهمس جاري:
"خذها .. خذها لليلة واحدة"
"هذه؟"
تطلبُ كأسا..
"آسف لم يبق لدي نقد كاف"
تواصل الجلوسَ بلا اهتمام. الليلةُ نفسها التي شاهدتُ فيها أفريقيا تلقي خطابا حماسيا أمام مستمعين لامرئيين. الليلةُ نفسها التي ضجّ فيها التلفزيون بالغناء، وتحلق الشاربون أمامه، وبدأ يتوافد جوالون من آخر الليل.
تتثاقل العاهرةُ وهي تنهض، تضع معطفها على كتفها. تحدّق بي بعينين غاضبتين سوداوين. أتطلعُ إلى لا مكان. تدير ظهرها وتغادر.

يتحدث جعفر عن بحيرة النخيل. حارة العبيد. أصوات الطبول:
"قبل أن يبدأوا الرقص، يضعون هيكلَ سفينة رمزية على منصة عالية، وحين يأخذ السكرُ منهم كل مأخذ، يدمدمون بكلام غير مفهوم بلغات غريبة. يستيقظ لاوعيهم الغارق في العتمة، السفينة ذاكرة، تلك التي جاءت بهم، وهاهم يعودون عبر الرموز"
بافلوف يتمسك بخزانة الجوز الخشبية.. جين تبكي يائسة، ربما لأنها لا تزال تبحث عن خزانتها..
ناجي يسقط في شارع لندني بعيدا عن خزانته.. وعجائز يهمسون:
" اكتب لنا .. اكتب .. عد إلينا "
وتهمس الكاهنةُ بصوت مبحوح:
" سأجعلكَ كاهني الوحيد.. متاهتي الوحيدة"

VII سفاثا

ما بيننا يتماثل للحضور
ودياني للريح
بستانك للسوسن

تقاطعُ نصّي أصواتُ بيانو، ظلالٌ تتقاطع تحت أزهار بوكنفيليا، سفينةُ أشباح.
تقول صاحبة الحانة:
"سفانًا هذه ولدت في خيالكَ أيها الآراميّ التائه، ستمائة عام أو أكثر، أنتَ لا تعرف حتى أين تكون"
"ربما هي أمامي من دون أن أدري.. ربما هي في أقصى ماضيكِ، أو ماضي الكون، نوعا من بومبي الرومانية وصل صراخُ شهواتها إلى السماء، فقررتْ أن تطمسها تحت أكوامٍ هائلة من الرمال"
تحتجّ الكاهنةُ التي لم تعد ترَ شيئا في غمرات الوجوه والأمكنة، ويرتجّ عليها. مطرٌ وساحاتٌ وأنداءٌ وحفيفُ أجساد، اصطفاقُ مياهٍ على جوانب مرسى وزوارق خالية. أمسياتٌ ، غاباتٌ، وأخيراً هذه المرأةُ تحت مسقط ضوء تقلب بين يديها ساهمةً طائراً حجرياً منذ آلاف الأعوام.
"يتعدد هذا النص، يتشظى. ليلٌ كستنائي. ليلٌ فاحم. ليلٌ برتقالي. ليلٌ ساطع. لا أعرف ما أراه حقا. قولي ما الذي ترين؟"
"أرى متوحداً يقترب من المتاهة، من الحجر الذي سيكون"

الشيطانُ وحده يعرف من أين جاءت جين بفكرة أن يعيشا معا في غابة، ويكون لهما أطفالٌ بعدد أوراق الشجر. كانا في الصالة الواسعة ينصتان إلى الترددات المتناهية في جسديهما بعد ساعات من الالتحام المتواصل. وداعبها بقراءة سطر من سفر التكوين:
"في البدء كانت الكلمة.. وكانت الظلمةُ ترفّ على وجه الغمر.."
فصرخت بغيظ:
"اللعنة عليكَ وعلى سفر التكوين"
لساعاتٍ ظلّتْ تشهق وتردد:
"أشعرُ بكَ .. أشعر بكَ في داخلي"
لا تستطيع متعتها دون أن تقولها عاريةً بلا استعارة لغوية. أما هو فكان يأخذها إليه متمهلا منحنيا على صدرها الشاسع برقةٍ حانية إلى أن يشعر بها تهتز عدة مرات متتالية، وهي تشهق.
"ما بكِ؟"
فتقول بأنفاس متقطعة:
"أنا كبيرة، وأنتَ تثيرني بلا توقف.. هل تشعر بشيء؟"
"ماذا تعنين؟"
"هل يمنعكَ شيءٌ من الدخول في العمق.. شيء.."
"لا.."
"استأصلتُ رحمي منذ سنوات.."
وخرجتْ من ارتخائها وسكونها متسائلة:
"أتعرف.. لو أننا وحدنا في غابة لكان لدينا مئات الأطفال.. أنتَ ساحر"
"هل تتصورين أننا سنظل هكذا كل يوم؟"

"لا أقصد هذا.. ولكن كم سيكون ممتعا لو كنا متزوجين.. سيكون الأمر رائعا"
لا يجد ما يقول، يكاد يطلق دعابةً ساخرة أخرى، إلا أنه يتراجع. بسكونها وشعرها القصير وخديها البارزين وجسدها الذي امتلكه منذ لحظات وأمنيتها اليائسة، كانت تطلق فيه إحساساً بسفينةٍ جانحةٍ تتحطم على صخور الشاطيء.

حين تنتبه الإيطاليةُ إلى تكرار لفظة الحجر، تتساءل:
"كيف لحجرٍ أن يثير كل هذه الفانتازيا؟"
"لمجرد المتعة.. مجرد الصمت الكثيف، وجودٌ يحمل عرائشه إلى الداخل، نهرٌ يخشى أن يتدفق ويصحو فإذا هو تائه في الصحراء"
وجهها الأسمر النحيل، ويداها الأكثر جدية من يدي محراث، وساقاها الرفيعتان تحت فستان بيتي باهت الألوان، كل هذا يجعلني أتساءل عن ذلك الخيال الروماني الأثيري والدفلى الطافحة بأزهارها الحمراء قريبا من السور المتداعي لمنطقة الآثار.
أقداحُ النبيذ والزجاجاتُ الفارغة وبداية النهار.
أصواتٌ متناثرة تحت الشرفة الضيقة. نهرٌ تائه في الصحراء.

حين خرج جدّي من سافانا ذات نهار بعيد، ربما كان هارباً من مشهدٍ مائي تتلامح تحته الطيورُ والنساء والظلال. ربما كان ضجراً من هذه العقود العباسية، وزقزقةِ العصافير اليومية في سدرة البيت كل صباح، ربما كان حانقا على هذا الطريق الوحيد الذي يقود من السوق إلى منارة المسجد الزرقاء. ربما كان محتشداً بسلالة لا يعي أنها ستنشأ وتتكاثر في الشمال البعيد تحت نثار الثلج المتساقط فوق الصنوبر والحدائق المعتمة.
ربما كان كل هذا، إلا أن المؤكد تماما خلو يديه من الخيط الذي قد يقود إلى الوراء.
" الوجود متاهة. وجوهُ النساء، دورةُ الليل والنهار، سقوط الأحطاب في عمق الغابات، زعيقُ الترامفايات، طرق الصحراء البيضاء، ضبابُ الجبال البعيد، هذه التضاريس الأرضية التي نراها قبل أن تحط الطائرة.."
"توقفْ.. توقفْ أنتَ تحاول تضليل الزمان والمكان، أنا مكان، وأنت كذلك"

"اصبري قليلا، كلنا أمكنة في الزمان تتتابع، هكذا تقول اللغة التقليدية، نتوالى بالاعتياد، لأن أعمق ما فينا تخفيه اللغة والتتابع، تصوري لو أننا ضغطنا كل هذا في جملة واحدة وقذفناه معا، ما الذي يحدث؟"

"ولكن ما تحاوله ليس هذا، أنت لا تضغط، بل تشتت..!"

أصواتُ بداية النهار تتناثر تحت الشرفة الضيقة. هنا جلست ليندا ذات صباح تتأمل الشارع، وهناك جلستْ أسبانية بيضاء بشعرها الأسود الطويل تحدق بسماء غرناطة وهي تضج بصيحات طيور السنونو، وهناك تلعثمت الكاهنة وتوقفت عن التنبؤ وهي تصغي إلى حفيف الأوراق المتساقطة.

"ليس لدي ما أصوب إليه بدقة. ما نصوبه ذرذراتُ الروح نحو أعماق مراوغة"

ما أخلو منه تماما هو أن أجعل جين أقل يأسا، وليندا أقل نأيا. وأنتِ أشدّ جسديةً من هذا الإحساس الصوفي الذي أتموج في ناره الساكنة. ما أخلو منه تماما هو البكاء العلني الذي ينشج في الداخل مثل حديقة بريئة. كل شيء يقاطعني. يتدخل يقتحم النص، آتيا من كل الجهات، فأمنحه رقة الرذاذ، حالما بحقول نوار شاسعة، تتراءين وراءها، أتراءى، ولا نجرؤ أن يهرع أحدنا إلى الآخر.

"تلك هي المعبودة مرة أخرى"

تعلق الإيطاليةُ وتخفي عبوسها للحظات.

لا زالت الريحُ تتردد بين الخمائل المهجورة والأنصابِ الحجرية.

السفر الثاني

I صوفيا

الثلج يتساقط عاريا
مثل قصائد بيضاء
(ايفان يانتشيف)

تساقط الثلجُ طيلة الليل. وحين تقفُ وراءَ زجاج الشرفة العالية، وتتطلع إلى الأشجار وسطوح البيوت المنخفضة، والمباني العالية، لا ترى إلا الأبيضَ بارزاً ومضيئا في العتمة. البياضُ، البياضُ المطلق. والوحيد. دعوةٌ للسهر، أو رغبة لمرافقة هذا البياض في رحلته حتى منعطف الصباح.
هذا النثارُ الأبيض المتساقطُ الخفيف يبدو نائياً. الغرفةُ دافئة بفضل نظام التدفئة المركزية، بقية من حسنات النظام القديم، نظامِ التماثيل المنكفئة في الحدائق والمجمعات السكنية الشبيهة بخلايا نحلٍ عملاقة، نظامِ خزانات خشب الجوز الكامد حيث يحتفظ البافلوفيون بنسائهم، بكل ما تبقى: الأقلام والأوراق وفساتين النزهات والقبعات الشاحبة، بحرصٍ ودقة متناهيين يصلان حد تقديس الغبار.
نظام الموظفات العجائز اللواتي لا زلن يحتفظن بصرامة النظرة المتشككة والحذرة، والشابات الضاحكات مثل نهارٍ يحلم بصديقٍ وزجاجة راكية وغرفة دافئة تطل على شوارع مقفرة.

جالا الأربعينية تتساقط أسنانها، فتظل تعيد ترتيبها بين فترة وأخرى. جالا غجريةٌ ضائعة، لا تملك خزانة جوز تنتظرها، لا شوارعَ مكتظة بالتماثيل، بل حناناً قديما يحيط بأسرةٍ تعيش في أعماقها. مشهد طفلة في بيت واسع يتحرك فيه الخدم جيئة وذهابا. يخلو البيت فجأة، يذهب الأبُ والأمّ إلى بلد غامض يسمى روسيا وهناك تطمرهما الثلوجُ إلى الأبد.

ديانا أقلّ احتفالا بالذكرى. فستانٌ أسود يلتصق بجسدٍ خمريّ، شفتان حانيتان، حزنُ عينين واسعتين، وسرطانُ ثدي ينتظر. تفكر بالهجرةِ مع طفلها الوحيد المنعزل إلى عمةٍ في استراليا، وفي انتظار ذلك تستسلم لصديقها رجلِ المخابرات اللحوح.

نادية الشقراءُ الممتلئة تتساءل حتى هذه اللحظة كيف كانت حمقاءَ وارتضت الزواجَ من عامل القطارات آسين الذي تحول إلى قطار بليد غارق في محطة معتمة.

في النهارِ الفضّي تتوافد الترامفاياتُ ، ويتجمع الناسُ بمعاطفَ ثقيلة، ومظلاتٍ أثقلها البياضُ المنهمر عند المحطات على امتداد الطريق. بعضهم يسير كأنما في أماكنَ نائية، بعضهم يجلس منتظراً تحت المظلات الزجاجية.
السكونُ يحيط بكل شيء، لا يقطعه بين آونةٍ وأخرى سوى هدير الترامفاي القادم، ثم وقوفه مطلقا صوتاً حادا، فإقلاعه هادرا مرة أخرى.
يصعد الناسُ إليه من كل مكانٍ، يذهبون إلى أي مكان. في كل الاتجاهات، يملأون صفوف مقاعد الجانبين ويطلون من النوافذ، يتزاحمون في الممرِّ الخالي بين الصفين ممسكين بالقضيب الحديدي الممتد فوق رؤوسهم، ناظرين إلى الأمام دائما، أو متباعدين لإتاحة الفرصة لقادم أو قادمة جديدة.
السكونُ يحيط بكل شيء إلا من الهدير، ومن مرور ترامفاي آخر من الاتجاه المعاكس، الهديرُ يحيط بكل شيء، فتبدو الوجوهُ وراء نوافذه ساهمةً خالية من أي تعبير، وجوهٌ شمعية تتطلع إلى وجوه شمعية في نوافذ الترامفاي الآخر. وما أن تصعد شابةٌ ناهدة من محطة وهي تنفض عن معطفها الجلدي نثار الثلج وتطوي مظلتها، تتجه حركةُ رؤوس فضولية نحوها، وتتباعد الأقدام، ثم يهدأ كل شيء حين تستقر الشابة بعد إلقاء نظرة لامبالية عمياء، يمينا وشمالا، وتمسك بالقضيب الحديدي أمام كهلٍ غارق في سكونه، نافضةً شعرها المبلل القصير بحركة من رقبتها.

"الشعرُ مهنةٌ خطرة"..
هذا هو التحذير الأول الذي تلقاه ايفان يانتشيف الستيني ذو الشعر الأبيض المسترسل والوجه البيضاوي الممتلئ من والده حين سمع بما ينشره من قصائد.
"إلا أن الخطورة لم تكن إلا بسبب السلاحف التي كانت تصرّ على أنها تفهم الشعر، بل ويجب أن تفهمه.."
وهكذا وجد نفسهُ عاطلا عن العمل والشعر أيضا قبل أن يهاجر إلى باريس، ويقترب من "أوكتافيو باث" و"بيكاسو" و"دالي"، وينشغل خياله بعمر الخيام، عمر الذي يتحدث عنه وكأنه كان ضيفه بالأمس.

في وسط الساحة، أمام فندق شيراتون صوفيا الأبيض الكبير، كانا في انتظارهِ ملفوفين بمعطفين طويلين. وقبل أن يتوقف الترامفاي رآهما منعزلين في الوسط يدور بينهما حديث تتناثر منه الإيماءات.
ما أن بدأوا السيرَ معا حتى حذره أحدهما من خطر الانزلاق، فالثلج بعد ساعاتٍ قليلة من سقوطه يتحول إلى ألواحٍ زجاجية تحت أقدام الناس.

ها هي صوفيا إذن، وجعفر المصباح السحري المقيم فيها كأنما يقيم في أقصى العالم، وصديقه المبتسم بإشفاق كأنما ليشجعه على مواصلة الرحلة.

مطارُ عمان في آخر الليل إضاءةٌ في صحراء، لا تخفف من غرابته أشباحُ المسافرين المتناثرين. يتقدم الطفلان وحقائبهما المدرسية على ظهريهما. أناهيدُ اكثر فضولا، لا تكفّ عن الحركة، والدبُّ القطني يطلّ متمايلا برأسه من قمة حقيبتها. وراءها غسان بلامبالاته الظاهرية، يطلّ من حقيبته جزءٌ من كتاب ضخم بالإنجليزية عنوانه العصر الحجري.
منذ أن خرجنا من الكويت مروراً بالطريق الصحراوي كنا نعبر العصرَ الحجري بالفعل. ربما جاءت الفكرةُ من اسم أول مكان في الأردن هبطنا فيه: وادي الحجر. واد جاف مكتظ بالحجارةِ لا يذكّر بالماء فيه إلا اتساع الهوة الممتدة بمحاذاة الشارع السريع.
حين وقفَ لتحويل نقودهِ إلى دولاراتٍ كان شخصٌ ما تبدو على ملامحهِ حمرةُ الارتياح لازال يعد نقوده؛ وشاحٌ صوفي، وجواز سفر واطمئنان إنسان في بيته. وما أن استدار حتى قفز إلى ذهنه الشخصُ كاملا: أستاذُ الاقتصاد في الجامعة، الرحلاتُ اليومية إلى مصانع الصابون والدجاج، وأخيراً مدير مركز الوحدة العربية. تداعى كل هذا في ومضةٍ ليستقر على وجهه المطمئن في وشاحهِ وجواز سفره، وفي الوحدة بالطبع.
وحدّثَ نفسه:
"لنا وحدتنا كما يبدو ولهم وحدتهم.. مصائر مختلفة.."

المصباحُ السحريّ لازال صوته يحمل الإرتجافة القديمة، ولازالتْ سمرته الترابية ومشيته المنتصبة، وربما النظرةُ القلقة الباحثة في الزوايا عن مصباح علاء الدين نفسها: عن الانتصار النهائي للشيوعية.
من أقواله:
"الأفضل أن تقتل طفلا رضيعا من أن تقتل رغبة".
ومن ذكرياته ذلك الزوربا القرويّ الذي عمل معه في كبس التمور بين نخيل البصرة. كان يعيش في كوخ منفرد على ضفة النهر، وأجملَ لحظات حياته اصطيادُ سمكة وتقليبها على نار الحطب، والسهرُ حتى الصباح مع زجاجة خمر. أما أقواله الأخيرة فهي أن الشيوعيين دمّروا بأنظمتهم اللاإنسانية الفرصة التاريخية الكبرى التي لن تعوض ولو بعد مئات السنين.

شارع خريستو بوتيف. صفوفُ أشجار حورٍ سامقة وعارية على امتداد الجانبين. البناياتُ ثقيلة. مداخلها مسودة كأنما من آثار حريق قديم. لا أثرَ إلا لأشباح كافكا المترددين على محاكم تنظر في اتهامات لا يعرفون ما هي، والمنتظرين لدى بوابة القصر منذ عصور لا يعرفون عددها.
من المؤكد أن كافكا كان واقعيا حتى الجنون. حتى تلك اللحظة التي يعرف فيها الكاتبُ كل شيء، البداية والنهاية، فيقف مذهولا أمام الصمت الكوني الأخير، أمام ذكرى الإنسان، ولا يتعثر بالسلاحف وعمالِ السكك الحديدية ورجالِ المخابرات ومديري مراكز الأبحاث المطمئنين وقادةِ الأحزاب ونباتِ الظل الذي ينهي قصائده دائما بأنخاب النصر.
هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها أن المدنَ يمكن أن تبنى، أن تتسع ساحاتها لآلاف المتظاهرين والرايات، أن تتردد فيها أصداءُ الخطابات الحماسية، ثم لا يخلف ذلك غير البردِ والسكون، والقليلَ من المحتفلين بالذكرى، والريحَ التي لاتزال تعصف أو تهدأ منذ أن استمع إليها إنسان الكهف، فإنسان القرية، فإنسان المدينة، وأخيراً إنسان الإمبراطوريات والقراصنة. كلُّ شيء يبيد إلا الريح. الريح نفسها التي عصفت بمدن الماضي ستعصف أيضا بمدنِ الحاضر، وتتخطاها في رحيلها اللانهائي.
العنوانُ الذي يحمله مختصرٌ. رقمٌ وشارع. إلا أن جعفرَ بدا واثقا من وجود الرجل، مهرب الناس إلى عواصم الشمال الأوروبي.

في ملحق حمد اعتاد المصباحُ السحريّ أن يكون الحاضرَ الدائمَ واليائسَ الدائم رغم آماله المعلقة على المصباح الموجود في مكان ما، والذي لابد أن يكون موجودا حتى لا نطلق الرصاص على أنفسنا.
لا أدرى من أين كان يستمد مرحهُ. ربما من الخمرِ الذي يصرّ على أن له طقوسه وقداسته، ربما من الأغاني الغارقة في عمق طفولته لبحارةِ السفن النهرية النائحين بأصواتهم المشروخة، ربما من البسطاء المخدوعين الذين يثق بيقظتهم.
سيندم فيما بعد لأن الأيديولوجيات منعتنا من التحديق في التفاصيل. في هذه الظلال الدقيقة للأشياء. في وجوه الناس الذين تحتشد بهم طرقاتُ الماضي. أناسٌ ينبعثون الآن مثل صورٍ خرساءَ من الأعماق تلحّ على أن تكتب. أن يرمّم بها عطبُ الذاكرة.

كافكا كان واقعيا حتى الجنون. ناجي لم يكن أقلّ واقعية، إلا أن ما أنقذه من الجنون الحسُّ بالفكاهي، تصعيدُ العتمةِ والجنون والكآبة وألم البراءة إلى الأعلى، حيث تفقد الأشياء ثقلها، ويبدو النظرُ إليها أقل خطرا. إلا أنه لن يستطيع تفادي الرصاصَ الذي سينهمر على رأسه ذات صباح في شارع لندني، رصاصَ البلاهة المطلقة.

على مدخل إحدى البنايات المعتمة يكتشفان الرقمَ ووجود الرجل. يأخذان طريقهما فوق درجات معتمة وباردة. الشقةُ أمامهما مباشرة، حتى بدا أن لا شقة سواها في هذه البناية الكبيرة. ولكن الداخل مختلف. وجوهٌ متنوعة، آلاتٌ كاتبة، شبانٌ يسترخون في الصالون بعيون محمرة ولحى مهملة. صوتُ حفيف أوراق. نداءاتٌ بالعربية.
ويبتسم الرجلُ بطيبة إلى درجة خيل إليه معها أن الوصول إلى السويد أو الدانمارك يقف وراء الباب: نحتاج إلى صورٍ ملونة. أفضل جواز سفر مناسب لكما وللأولاد اليوناني لأن لا أحد في مطارات أوروبا يعرف كلمة يونانية.
الرجلُ المعجزة يجعل الأمرَ مريحا. كما لو أنه يدير إمبراطوريةً عالمية.

II الكويت

سيكون الذي يأتي أشد ظلاما

أطلَّ الجنديُّ العراقي من مكمنهِ الإسمنتي مثل خلندٍ معفر بالتراب، وظلّ ساكنا يتطلع إليه وهو يحاول تشغيل سيارته. لم يلتفت إليه.
كان المكمنُ على بعد بضعة أمتار من بوابة الحديقة. على الرصيف أمام بوابة السفارة التايلندية المهجورة.
وظلّ الخلندُ ساكناً والرجلُ يرفع غطاء المحرك، ثم ينزع رأس البطارية ويعيده ويتفقد الأسلاك. كل شيء على حاله، إلا أن الكهرباء ضعيفة، ولا يصدر مفتاحُ التشغيل إلا صوتا رفيعا لا يلبث أن يموت.
أخيراً ترك الرجل كلَّ شيء على حاله، وعاد وتوارى خلف سور الحديقة من دون أن يلتفت إلى الخلندِ الذي كان يحرّك رأسه في نصف دائرة متابعا خطواته.
على الرصيفِ المقابل جنديٌّ آخر ينحني أمام خرطوم مياه يمتد من حديقة بيت كبير، ويمسك به خادم هندي قاتم الملامح، فيغسل يديه ووجهه وساقيه الشبيهتين بساقي جرادة. ثم يتناول منشفة عن كتفه. يقف على الرصيف. يمسح وجهه. يتفقد حزامه، ويصيح بشيء ما مخاطبا الخلندَ في مكمنه الإسمنتي.
كان الشارعُ خاليا إلا من سيارةٍ تمر متمهلةً بين آونة وأخرى، وتتوقف أمام حاجزٍ خشبي يسدّ الطريقَ أو نصفه على الأقل، إلى أن يشير جنديٌّ مائلٌ على كرسيه لصاحبها بالمضي في طريقه.
شمسُ أوائل النهار تضيء المكمنَ وبابَ السفارة المغلقَ وسورَ الحديقة المنخفض الذي توارى خلفه الرجل.

من مكانٍ ما يجيء إليه صوتُ سكونٍ مهدِّد. اللا شيءُ يهيمن على كلّ شيء. على المرئياتِ والذكريات، وعلى الدقائق المتأهبة للمجيء وهي تقع في قبضةٍ وهميةٍ غامضة فتتوقف ولا تجيء، تاركةً للمرئياتِ عريها، كأنما تجوّفتْ واحتلَّ الفراغُ مكان ثقلها وألوانها وحجمها. حتى حوضَ النعنع على بعد مترين إلى يسار باب الشقة الأرضية، حتى شجيرةَ الرمّان وبعدها شجيرة الليمون، وهكذا حتى آخر الممر الإسمنتي بين خطين من أزهار صيفية، وصولا إلى باب السور الحديدي المنخفض.
زهرةُ رمّانٍ وحيدة مغبرّة لا تزال عالقة. أما شجيرة الليمون فقد تساقطت أزهارها مع هباتٍ عصفت بالأمس. ها هي بتلالتها ملتصقة بالتراب.
على يمين الممرِّ الإسمنتي تركَ مساحةً خضراء. بضعةَ أمتار للعشب وحده تنتهي عند حديقة الشقة المجاورة. اختار أصحابها أن يفصلوها عنه بأشجار دفلى عالية لا يتذكر أنها أزهرت أبدا.
الدفلى شجيرةٌ جميلة تذكر أزهارها الوردية والحمراء الغامقة والبيضاء وخضرة أوراقها الكثيفة وتمايلها حين تهبّ الريحُ بالوطن، أو بالعمر المفقود على حد تعبير أخته الستينية. كانا يمران بالسيارة بجوارالشاطئ حين التفتت إلى أجمة خضراء عالية ووحيدة ومن ورائها زرقة البحر، فندت عنها شهقة قصيرة:
"دفلى.. ياللخسارة.. راح العمر معمسة!"
لا يدري كيف يرتبط العمرُ بمشهد أزهار الدفلى أو أية أزهار، إلا إنه يحس بهذا الارتباط، كما يحس بهشاشة وجود الكائن حين يستمع إلى صوت الكمان ليلا، فيتحول إلى إصغاءٍ تام يمحو مشهدَ

الأسطوانة الدائرة، وصفوفَ الكتب الصامتة، والنافذتين المطلتين على الليلِ حيث يتخيل مسارَ الصوت الهادئ، إصغاءً لكل ما يجيء ليذهب ولا يعود.

كتابُ بريستيد، فجر الضمير، مفتوحٌ على طاولة المكتب العريضة. إلى يساره ستائرُ النافذتين وإطلالةٌ على رؤوس شجيرات الياسمين ساكنةً تغطي السور، فالشارع الصامت، فالبيت المواجه بمكعباته الحديدية وشرفاته القاتمة، وسطوحه القرميدية التي تذكر بسطوح قرى الشمال الأوروبي.
الجنديُّ المغتسل لا يزال يتجول متمهلا على الرصيف جيئة وذهابا، وقد استرد بندقيته، ولا زال يجفف وجهه بمنشفته. يتوقف أحيانا ليتحدث إلى اثنين من الخدم أمام بيت السطوح القرميدية، ثم يواصل تجواله.
البيتُ الساكن خلا من أصحابه. فقبل أن يصل الجنود، ويبدأوا بحفر المكمن وإقامة حوائطه الإسمنتية المنخفضة على الرصيف، ويتركوا ثلاث فتحات مستطيلة تطل على ثلاث جهات، اكتظت سيارةٌ ضخمة أمام البيت بالأكياس، وشدت على ظهرها الحقائب وظلت هكذا طوال ساعات، ثم اختفت فجأة من دون أن يلاحظها.
سكانُ الشقة المجاورة اختفوا أيضا فجأة، ولم يعد يحسّ بحركةٍ في حديقتهم المجاورة وراء أشجار الدفلى. لم يبق في الحديقة سوى بضعة إطاراتٍ مطاطية وموقدٍ حديدي مرتفع مسود يتناثر حوله فحم قديم لفحه البياض.
حارسُ البناية السوداني بلهجته المائلة الحروف. اختفى أيضا. وعبث الأطفالُ بأثاث غرفته حتى لم يبق فيها سوى أغطية ممزقة وبقايا علب وزجاجات فارغة ومفاتيح لم يعرف أحد لأي غرض كان يستخدمها. كلُّ شيء يختفي ويتلاشى ويضمحل كأن كلّ شيء لم يكن.
ينقل بريستيد عن راويةٍ مصري قديم مرثيةً يتفجع فيها على ما حلّ بمصرَ قبل أربعة آلاف عام. الغرباءُ يحلون في الأرض فيفقد كل شيء معناه: المشوارُ اليومي والحدائق والنهاراتُ والمساءاتُ، وينقطع فجأة تيار الزمن. يتوقف عند صخرة بعينها، لا يعود قبلها ما ض ولا مستقبل. لا شيءَ يجيء، لاشيءَ يذهب، يصبح كلُّ ما نحب نائيا كأنما في حلم لا يطاق، يعجز الإنسانُ، تحاصره صرخاتُ جاره وهو يُقتل فلا يستطيع إنقاذه، لا يستطيع إنقاذ الأطفال الذين تجرفهم أمواجُ الكآبة السوداء بعيدا.
يعودُ إلى المكتبة برفوفها المحيطة به من الجهات الأربع، لا شيءَ سوى المكتبة. هؤلاء الناس الذين أصبح وجودهم فائضا، مثلنا تماما، كانوا مألوفين مثلما هي مألوفة لوحة الجورنيكا الطويلة على الجدار، والمزهرية اليونانية الزرقاء.
يتساءلُ مندهشاً ويتذكر كم هي المسافة شاسعة بين ليلة البارحة وهذا النهار الساكن الذي لا يتجول فيه غير الجنود المغبرّين أمام البيوت الفارغة في صمتها ووحدتها.

من المهم أن يروي الإنسانُ الأشجارَ والأزهارَ، ولا يترك لهذا السكون المهدِّد أن يفقده صلته بالملموس والحي. في صوفيا، في عيد الربيع، يعلقون ألعابا صغيرة منسوجة من خيوط حمراء وبيضاء على كل شيء. على صدور الناس والشجر، لهذا يصادف العابرُ بدءا من أوائل مارس هذه الألعاب الصغيرة تتدلى على صدور النساء والأطفال والعجائز، ومن أغصان الأشجار.
الأمرُ يتعلق بالحياة وبشيء آخر: ابتكار ضدٍّ عنيفٍ لهذا السكون المفروض. سكونِ الآنيةِ الحجرية. ما أن يواجه الإنسانُ وجهَ الجندي الخلندِ أو الجندي الجرادةِ حتى ينتابه شعورٌ بسريان التصلّب والنسيان في روحهِ. تصلبٌ يمتد شيئا فشيئا في أعماقه، فيرى نفسه شيئا غريبا. هو ليس ذاته، هو ليس ما كانه أو ما يريد أن يكون. وحين تتسلط عليه عيونُ جندي الحاجز الشبيهة بعيني عظاءة، ويطالبه بهويته، أو يفتح باب السيارة مفتشا عن شيء ما، ينتابه شعورٌ بأنه ارتد إلى عصر بعيد، ما قبل اللغة والوعي. ما قبل الإنسان.
ذات مساءٍ خرج رجلٌ من وراء سور بيته ممسكا بخرطوم مياه، وبدأ متمهلا بريّ أشجار الرصيف كما اعتاد أن يفعل دائما غير ملق بالا للشاحنات العسكرية وهي تتمهل في سيرها.
ريُّ الأشجار ضروري، هكذا فكر، وكذلك البحث عن الإنسان. عن البشر في هذا الركام من الآليات والمدافع والبنادق والخلندات والجراد، البشر المتباعدين الذي تلوح وجوههم بين الأنقاض والغبار والبيانات العراقية الهادرة برغوتها الطاغية على كل شيء.

أحيانا كانت تنطلق في السكون زخاتُ رصاص وصوتُ سيارة مسرعة، فيميلون قليلا بعيدا عن النافذة لتفادي أي رصاصة محتملة، ويواصلون الحديث.

منذ اليوم الأول لم أغادر الشقة إلى الصحيفة، بل نسيت وجودها. في هذا الضجيج أفهم أن عليّ أن أنقطع تماما عن الأشياء التي خلتْ من لبّها. العمل وخطط الغد. لا خطط. لا معنى للنخلة حين يحتزون لبها.

إنسانٌ وجد نفسه فجأة في عصر الزواحف البعيد. وعليّ أن أتلمس طريقي إلى اللب، إلى الناس وحدهم. الناس الذين يتوزعون الآن في أمكنةٍ عديدة لا ثبات لها: مشتتين، ضائعين، محاطين برغبات تقطعت وراء زجاج مغبر. يتحركون ويتحدثون في مشهد صامت. لايصلني حديثهم.
هذه العظاءة الديناصورية البلهاء تطل علينا في اليقظة والنوم، فنصحو متسائلين: أحقا ما حدث أم أنه مجرد حادث عابر في الماضي؟
قبل سنوات راودني حلمٌ عجيب: طائراتٌ سوداء تغطي سماءً صافية بغيوم بيضاء، وتبحر ساكنة وبطيئة إلى الأعلى.. فالأعلى. حلم بلا معنى. فمن يتوقع أن يندلع بركانٌ في صحراء، أو يصحو صباحا فإذا العصرُ الجليدي حل حوله؟

في منتصفِ الليل ليس سوى حفيفِ أوراق الشجر وسكونِ الشارع والبيوت المظلمة، وسماءٍ تبدو بعيدة جدا، لأن أنظاره مركزة على حافة السور المغطى بالياسمين القاتم.
سرٌّ شجيرات الفلِّ القصيرة يجتذبه. هذه الشجيراتُ تظل براعمها مغلقة، خضراء. وفجأة حين يصحو صباحا يجدها تنفجر بالبياض، والأريجُ المميز يملأ الهواء. في الفجر أحيانا يسير جيئة وذهابا بمحاذاة شجيراتِ الفلِّ تحت النافذتين منتظراً لحظة هذا الانفجار، إلى أن يصيبه النعاس، ولا تخرج البراعمُ الخضراء من صمتها فيأوي إلى فراشه متخيلا أن الشجيرات لا تفجّر بياضها إلا في الوحدة، تنفتح بهدوءٍ مستمتعةً بوحدتها اللامعة في وحشة الحديقة.

III الطائر الحجري

حينما يتعب الأصدقاء
يتحولون إلى شجر وحانات
وطيور من ماء
تتساقط في الماضي

الطائرُ الحجريّ الملوّنُ لا زال يلحّ عليه. طائرُ الطفولة والقروش القليلة. تركهُ ولم يعد إليه. نسي وجوده. يعود إليه فينظر من دون أن يعرف ما يراه حقا. هل كان مجرّدَ فكرة، أم شيئا ملموساً من فخار تغطيه طبقةٌ صقيلة ملونة. وكيف كانت هيئته؟ منقاره؟ ألوان جناحيه؟ وهل كان بقدمين!؟
تلك الليلة حتى أوائل الفجر، والمصباحُ نصف معتم، شاهدها تحت مسقط الضوء، هي والطائر بين يديها تقلبه متسائلة، وحولهما ظلمةٌ فاحمة.

الكتبُ صامتة. فجر الضمير وحده. لم يتناول غيره منذ اليوم الأول. في الخارج يعيش الشجرُ على السور الحديدي وحشتهُ محدقا في الشارع الخالي، يسمع أحياناً صوت قذيفة بعيدة يملأ الفضاء. فيرتج الزجاج. الطفلان هادئان في سريرهما. هو أقل هدوءا. إلا انه لا يعرف أين يضع هذه الفكرة أو تلك. هذه الصورة المظللة أو تلك. ما الذي يهتاجُ في هذا البحر المضطرب من الكتب والوجوه والأمكنة. أمسياتٌ بعيدة ماطرة. ساحاتُ مدن يتطاير فيها الحمام الآن. مطاعمُ على البحر في الظلال ونسيم الظهيرة يهب في سكون.

عبرّتْ جين عن يأسها منذ زمن طويل. فالثورةُ أسطورةٌ ووهم.
قالتها بإشفاق أمٍّ تتمنى أن تنقذ طفلا من حريق لا تملك أمامه شيئا.
كتبتْ له من "التيبت"، من دير جبلي يستطيع أن يتخيل قربه من السماء وبعده عن الأرض، عن السلام الذي يفيض عليها الآن، عن النأي الدافئ فوق هضبة باردة. سقف العالم كما تقول.
لم تعد تحلم بغابةٍ وأطفال. ففي عمق اليأس وصلت إلى الأقصى، إلى أنوار آتية من لا مكان.
يضحكها لقبُ كاتبة عمود أسبوعي كانت تحشد فيه يومياتها: أحببتُ فيلسوفاً مدهشا.. شاعراً يحب الموسيقى.. لا تتركوا الناس ينتظرون طويلا أمام أبواب المطارات.. دعونا نستكشف هذه الحفلات الجماعية.. يسألني ويست أريد أن أشاهد هذا الذي جعل النجوم تلتمع في عينيك. وفوق كل هذا تظهر صورتها المعابثة بابتسامة عريضة لشفتين رفيعتين وخدين بارزين وعينين يظللهما شعر كستنائي قصير حتى الأذنين.
جين الآن بشعرها الطفولي هذا، شعرها الذي أثار حنانه وهي تنتحب، أو وهي تغمض عينيها، أو وهي تشهق وترتجف وترتخي، جين هذه ترتدي الآن الثوب الزعفراني وتركع بهدوء وسكون أمام

بوذا الوادع وعينيه المسبلتين وجبينه المتوج بلمعة ذهبية وبين يديها أزهار جبلية حمراء.. مضحكة.. بريئة.. يائسة.. ربما.
"لا تعتقد أننا نعبد الأحجار أو البرونز أو الصور، إن هي إلا وسائل تساعدنا على تركيز أفكارنا، تركيزها حتى الحد الأقصى. ولماذا؟ لنصل إلى عمق وجودنا، إلى النبع الأول الذي تنطلق منه كل الكائنات، إلى اللحظة التي يفقد فيها الإنسانُ إحساسه بأناه، يصير مرآة ، ومضة ممتزجة بفيض أكبر وأوسع. فيض يشمل الكون كله. فيض أبدي لا مكان فيه للتكون والزوال. وحده الكائن"

ناجي يرقدُ في مقبرة بريطانية بعيدة تحت عمق ثلاثة أمتار. وضعوا شاهدا رخاميا أم لم يضعوا، الأساسي انه ضاع إلى الأبد، رغم أننا نقول أن الأشجار تتمايل مشذبةً فوقه، فوق الأرض التي نحب، هناك على جوانب طرقات مرصوفة تحف بها الأزهار، وتخترق شواهدَ القبور الحجرية مثل متاهة خضراء.
غالب تحول إلى سديمٍ. لم أتخيل يوما أنه سيتحول إلى سديم بهذه السرعة لشدة براءته وبساطته ووضوحه. مشهده كعملاقٍ يتجول في ساحةِ بيته الدمشقي الخالي يوحي بأنه سيظل كذلك دائما. لم يعد موجودا الآن في أي مكان حتى تحت الأرض حيث لا يحتمل الغموضُ ولا تطيق العتمةُ ولا يفهم الترابُ كل هذه البراءة.
أيمكن أن يذوب كل هذا في العتمة والوحشة؟ لا شك أن لنا أمكنةً أخرى نمضي إليها بعيدا عن الجسد الملقى على سرير مستشفى. لا شك أنه تحوّلَ إلى كائن خفي.

في هذه اللحظات، يتسع الفقدان، يتحول إلى فضاءٍ شاسع يجهل فيه كوكبٌ ما يحدث في المجرة المجاورة. هل هناك بالفعل كواكب أخرى أم أن الأصداء ليست سوى همساتِ سديم آخر ضائع؟
بماذا يتعلق الإنسان الذي يطوّقه الفقدانُ ويغرقه؟

الحديقةُ هي كل ما يذكر. المقعدُ الطويل. المقاعد المتناثرة الخالية أمام أحواض الشجيرات الصغيرة. في ذلك الصيفِ تخيّلَ طائره الملون موجوداً. لا بد أنه في مكان ما من هذه الحديقة أو هذا البيت.

كم هي قريبة من قلبه هذه المرأة. ودَّ لو يركع قريبا من قدميها وهي عند أطراف الفجر ويرجوها أن تأخذه ليبحثا عن طائره الملون. طائره الحجري البعيد.

IV غابة التوت البري

آه.. كم إن لجسدها رائحة الخوخ الأحمر الغامق
(كزو زيمو)

اختفى الرجلُ المعجزة. في مكتبه ليس سوى صناديق وصناديق. شابٌ وشابة بلغاريان ينحنيان على صندوق مفتوح من دون أن يبدو أنهما يقومان بعمل محدد.
هزّ الشاب رأسه، وتطلعت الشابة مستغربة "لا أحدَ هنا بهذا الاسم"

ودّ أن يسألهما ماذا يفعلان بين هذه الصناديق، وما معنى وجودهما هنا، إلا أنه تراجع. يبدو أن السكان الجدد لا يعرفون شيئا عن الذين كانوا، أو لا يريدون أن يعرفوا، أو هم يخشون أن يعرفوا.
تراجعا عن الباب معتذرين باللفظة البلغارية الوحيدة التي يعرفها حتى هذه اللحظة:
"ازفينيتا"
آسف. وأغلق الشابُ الباب بعجلة كأنه يغلق وكرا سريا، ليظل هو والشابة وحيدين، وأيضا بلا معنى كما بدا له.
بقايا الثلج متجمدةٌ بمحاذاة جدران البنايات حتى آخر الشارع. خطواتُ المارة أزاحتها جانبا وخلفت ممرا طينيا لزجا في الوسط. الثلجُ معتم يشوبه سواد المداخن. اختفى البياضُ وهشاشته التي كان يحب أن يغوص فيها بقدميه حين يسير في الحدائق. اختفى اتساعه اللانهائي الذي غطى الأشجار الصنوبرية والممرات وسطوح المباني. كان خفيفاً مثل ريشٍ وهو يتساقط على وجهه ومعطفه.
اختفى البياضُ الناصع الذي كان على منحدرات جبل فيتوشا حتى قمته هناك باتجاه الشرق. خطوطٌ سوداء وغاباتٌ غامضة الخضرة، وقمةٌ بيضاء يسيل على جوانبها البنُّي والأزرقُ والأسود. كلُّ ما تبقى.
في القناةِ المحاذية للشارع هديرُ مياه: الجبلُ يتدفق كما فعلَ ويفعل قبل أن تملأ الكائناتُ والمكعباتُ البيضاء والرمادية والبنية وسطوحها القرميدية هذا السهل، قبل أن تكون الأرضُ مساحاتٍ هندسية منتظمة، خضراء. بنية. حمراء.
حين تحطّ الطائرةُ يختفي هذا المشهد، وقبله يختفي مشهدُ الأرض المتجعدة القاتمة والنائية، تحت الغيوم البيضاء، وتدخلُ في مشهد الكائنات. تنغلق حولكَ الشوارع والمباني، وتشغلك اللافتاتُ التي تصرُّ على قراءتها بلا سبب محدّد في أي بلد حللت.
يلفت المصباحُ السحري نظرَه إلى أن هؤلاء الناس، أمثال الرجل المعجزة، مزوري جوازات السفر، يظهرون ويختفون ولا تعرف لماذا ومتى. إنهم مغامرون متنقلون، سادة العصر، أو سادة حاراته الخلفية.
لم يكن يعرف أن الرجل المعجزة يسترخي الآن في سجن صوفيا المركزي، على مرتفع وراء أقصى أحيائها القديمة الشمالية.

المصباحُ السحري يتوحّد في شقته النائية على الأطراف. هناك حيث يمر شارعُ المطار العريض، وتصعد وتهبط الطائراتُ يوميا بلا انقطاع، ينشغل بإعدادِ وجبة عشائه، وتبريد زجاجة الراكية لسهرة الذئب، كما يسمي سهرته، وحيدا.
في ساحة الأندكا يتوقفان. المركزُ الثقافي المرتفع يتحول إلى أسواقٍ تجارية. الفضاءُ وحده مازال شاسعا. هناك تنحدر المباني وتنخفض. تنحدر الأرضُ المغطاةُ بسقوف قرميد متواضعة حتى جبل فيتوشا العالي والممتد محيطا بالشمال والجنوب معا.

فيوليت بساقيها الطويلتين وأنفها المعقوف الذي يكاد يصل إلى شفتيها الرفيعتين، تعتقد أن من السيئ أن يكون أصل الأبجدية السلافية تركيا، أما إن كان عربيا فلا بأس.
ترفع ساقيها المتصالبتين بلامبالاة في صالة بيت نادية وأمامها سائق شاحنة يوناني غليظ الرقبة يصغي بذهول إلى أطروحتي حول أصل اللغة اليونانية.
أقول أن أجداده الحفاة أطلوا من كهوفهم ذات صباح مشمس على شاطئ أتيكا، فشاهدوا معسكرا ودخانا وسفنا راسية. فتسللوا واحدا بعد الآخر للتعرف على هذا الرعب، أو هذا الكون الذي حط فجأة على الشاطئ الخالي إلا من أشجار الزعرور والبندق. أتعرف ما كان ذلك؟ كان معسكرا كنعانيا أقامه البحارةُ ليرتاحوا ويشربوا القليل من النبيذ.
في ضوء نيران ذلك المعسكر سمع أجدادكَ الكلام لأول مرة، وتلمسوا الثياب الأرجوانية السابغة، ونعومة السيوف البرونزية والدروع.
لم يبد على اليوناني أنه يصدق هذا، فاضطررتُ إلى تذكيره بكلمات يونانية ذات جرس ومعنى عربيين، ولم يفهم أيضا. وأخيرا تأففتْ فيوليت من هذا الهراء. كانت مشغولة الذهن بشيء آخر.
قالتْ نادية هامسة وهي تميل عليّ "هناك مشروع خطبةٍ.. ربما.. من يدري"، فبدا لي من المزعج أن تتم خطبة فيوليت واليوناني من دون أن يعرفا شيئا عن أصل اللغة أو ذلك المعسكر الكنعاني، أو حتى عن الأخوين كيريل وميثودي اللذين جلبا الأبجدية اليونانية إلى السلاف المتوحشين، من دون أن يدركا أنها أبجدية كنعانية، وأنه لم يتم تعميدها بعد في كنائس بيزنطة.

يعرفُ الآن ما يتهيج تحت هذا البحرِ المضطرب من الكتبِ والوجوه والشوارع والأمكنة وساحات الحمام في العواصم البعيدة. يعرف ما يتنفس كأنما يوقظه الندى وحفيفُ الشجر وامتداد زرقة السماء حتى آخر مجرة: ذلك الجسد: منحنياتُ الأرض، التلالُ والروابي واستدارة القمر. الصمتُ وحده حولهما. أصواتٌ خفيضة تشبه صوتَ رقرقة النبع وسكونَ الأيائل وتمايل الأعشابِ والنداءات البعيدة الغامضة بين التلال. كان يحسّ بالتماع النجوم وهمساتِ الرياح بين أشجار التوت البرّي وحركة الجسدين المتموجة كأنما في غابة نائمة، وهمسةٍ مبحوحة.. ".. متاهتي الوحيدة ".

يتركني المصباحُ مبكراً لأن طريقَ رحلته إلى شقته النائية وليلته الذئبية طويلٌ ومرهق. أتخيلُ أحيانا أنه يمتد حتى الفجر. أراقبه وهو يودعني كأنما متعجلا، ويستدير بقامته المنتصبة ووشاحه الصوفي يلف رقبته وخطواته المنتظمة، قبل أن تغمره المعاطفُ البنيةُ والرماديةُ والقبعاتُ في نهر الشارع العريض.
صوفيا مكتظةٌ بالبشر وأشجار الكستناء تحت سماء خفيفة الضوء. شمسٌ نحيلة، أو ليلٌ مفاجئ. ترتفع فجأة سحبٌ سوداء آتية من الشمال فوق امتداد فيتوشا، وتحرّكُ الرياحُ أوراق الشجر، وتتساقط أوائلُ القطرات، قبل أن يهطل المطرُ غزيراً وجارفا، وتضاءُ أعمدة النور، وتتوقف الترامفايات، وتتجمع القبعاتُ والمعاطفُ والمظلاتُ عند محطات الوقوف، ويتحول الشارعُ إلى نهر عريض هادر بالمياه الطينية المتدفقة.
أعماقُ الغابات البعيدة الصامتة يغرقها هذا السيلُ المندفع نفسه، ولكنها تتماسك أمام طوفان المياه. ظلمةٌ وأوراقُ شجر متراكم، وعزيفُ شجر متوحد. هذا هو الكون كما كان وكما سيكون.

اكتب إلى محمد القيسي رسالةً تظل بين أوراقي. الرسائلُ الثمينة لا ترسل أبداً:
..."مثلما أن لكَ هناك مقهى في الزقاق الذي يلغيكَ، لي هنا مقهى آخر، والكثير من القلق والتوجس"..
تجيئني المرأةُ ذات العينين الواسعتين والشامة النافرة بلا مبرر على صفحة خدها، وشعرها الكثيف المشدود إلى الوراء، وسمات وجهها الصارم الأبيض وقامتها المشدودة بثوب أسود. فنجانُ القهوة اليومي وصحن البقلاوة.
الوقتُ ظهراً، والرذاذُ ما يزال يتساقط والقبعاتُ والمظلاتُ تتوالى خارج نافذة المقهى العريضة وتختفي..
" فجأة نجد أنفسنا بمعزل عن كل شيء. الصداقاتُ هي ما يُنقذ. ويقال الفن أحيانا، أعني الكثير من الحنين إلى اختراق اللحظة وصلابة الموجودات. منذ ثلاث سنوات وأنا منغمر بقراءة ما فاتنا طوال الألف الثانية بعد الميلاد. إنه كثير إلى درجة مرعبة.."
واكتبُ:
.."تحت هذه الشمس النحيلة أعرفُ لن يتغير شيء في الزقاق العربي. لنتغير نحن إذن، أو نغير الزمان والمكان. أنتَ لست قوقعةً ، أنت طائرٌ. في هذه الأمكنة تنسرب الأفكارُ لسبب ربما يبدو بسيطاً : لا شيءَ مما تعرف يمكن أن تصطدم به. الكلُّ مجهولٌ، هذه اللغاتُ والأجناس والسماوات التي تخاطبك بجسدها فقط..".

7 خزانات الجوز

لا شيء يدوم في الزمن اللانهائي
(من قصيدة على جدار بيت في بومبي الرومانية)

موقفُ الترامفاي يواجه فندق الرودينا. العاشرةُ مساء. أصواتُ غناء تجيء من الطابق الأول المضاء. على الرصيف فلبيني بيدٍ معوجة أمام محل تسجيلات. وعلى خطوط الترامفاي الحديدية تقف بلغارية عجوز ذاهلة لا تعرف إلى أين تذهب كما يبدو. ثم لا أحد. أو لا شيءَ يُضاف إلى المشهد. وسيتعمق اللاشيءُ حين يعرف بعد ذلك أن الترامفاي الذي ينتظره وحيداً لن يجيء.

حين يقول.. " لا شيءَ َ"، جوابا على سؤالٍ عن الأحوال أو عن غاية ما، فإنه يقذف جوابه كما يقول من عمق الصمت الكوني الأخير الماثل. من تلك اللحظة التي لا تسود فيها سوى ذكرى الإنسان. إنه لا يعتني بالعابر والزائل، بل يمضي مباشرةً إلى الماثل الأبدي. فمنه تجيء الأجوبةُ. الإنسانُ لا يتذكر بل الكواكبُ المهجورة والمجراتُ البعيدة. اللاشيءُ هو جواب الأزل أو اللانهائي أو الصفر في معادلة سوفوكليس:

" أيها البشرُ الفانون يامن تعيشون الآن، من حل به الفناء منكم ومن سيفنى، لقد حسبت مجموع حياتكم فكان يساوي صفرا"

مرة أخرى خطر بباله هذا "اللاشيءُ" حين استوقفه مشهدُ رجل متعب على مقعد عريض في آخر الليل أمام محطة باصات. كان الرجل ملتفا بمعطف سابغ. غافيا أو مستيقظا، ولا شيءَ ينبئ بأن باصا سيجيء. محطةٌ مهجورة في صحراء. لا طريقَ منها أو إليها. فما الذي ينتظره؟ أو ما الذي ننتظره بالأحرى؟

يمرّ بالتماثيل البرونزية المخلوعة عن قواعدها، وتلك الملقاة بين الأعشاب الرطبة وقطراتُ المطر تنزلق على معدنها الأخضر المعتم، مهملةً في هذه الزاوية من العالم. الأطفالُ يتزحلقون على أجسادها. يقفزون بوجوههم الساخنة ومعاطفهم الصوفية. الأمهاتُ منشغلاتٌ بالأحاديث على المقاعد الخشبية الخضراء.

النهارُ في أولهِ يُشيع الحنانَ في الجو، أو يُشيع شيئا حاضراً وماثلا. معنى. يستيقظ بافلوف، وهو مستيقظٌ الآن بالتأكيد في شقته الصغيرة. ينهض عن سريره ليعد قهوته الصباحية، وليتأكد أن خزانة الجوز لا تزال مغلقةً على أشيائها العزيزة. تلك الشيوعية العنيدة التي تركتْ له المجلات النسائية، الكتب، دفتر اليوميات ونظاراتها الطبية، وهذه العاصفة الغامضة التي حطمت التماثيلَ وقوضتْ الصروح الرخامية، وكسرتْ مصابيح الحدائق، ونثرت كافتريات الساندويشات والقهوة السريعة في كل مكان. انهيارٌ عصبي على الفهم لصرحٍ بدا أنه ينتمي للأزل.

لا يبدو بافلوف مترنحاً تحت هذا الثقل، بل خفيفا إلى درجة لا تصدق حتى هذه اللحظة التي بدأ يتخطى فيها أعوامه الثمانين صامتا.

وبدا الآن وراء زجاج النافذة مثل شبحٍ طويل يراقب النهارَ المنتشر بين أوراق أشجار الحديقة المواجهة، وشعر النساء العائدات من السوق أو المكاتب الكابية، وعلى وجوهِ التلاميذ الصغار العائدين من المدرسة وحقائبهم على ظهورهم وهم يتقافزون بين الأشجار المشمسة.

النهارُ في أوله حيث يمر النسيمُ على البوكنفيليا المثقلة، وبين أوراق المندلينا، وعلى المقاعد البيضاء المتناثرة. لا زال النهارُ في أوله يحمل أشياءه إلى الحديقة الخالية. يتوقف عند السور باحثا عن شيء يلمسه. شيء يتعلق بالإنسان. كوب شاي، أو قدحٍ، أو طائرٍ ملون من الفخار ما زال ملقيا كما كان بالأمس بين الأعشاب.

النهارُ أيضا يبحث عن الشيء. النهارُ يتخيل نفسه أبدياً وهو يرتفع فوق جبال التيبت فتلقي ظلالها على الجانب الآخر المعتم، ويستقبله وجه جين الساهمة. يرف جفناها وتتعمق خضرةُ عينيها ويلمع شعرها الكستنائي القصير فوق تلك الصخرة الناتئة على سقف العالم.

النهارُ في أوله يشيع الحنانَ والمعنى، فيبدو اصطخابُ الموج على شاطئ هاواي نداءً للجسد. ليندا تستلقي في حالتها الذهبية تحت شمس خط الاستواء. صحوٌ ومطرٌ، أو غيمٌ ونهارٌ في وقت واحد. تتساوى الأشياءُ، وتبدو العواصمُ في الذاكرة قريبةً من هذه الصخرة أو هذه الموجة، وهذه السماء المفتوحة على القارات. صورُ العشاق يأخذها الموجُ بعيدا، وليندا تتذكر، تهتدي بالأمواج.

ما أن تتطاير شفافيةُ الفجر ويبدأ لغطُ الناس في أوائل النهار حتى أراكِ تتقدمين مثقلةً إلى الحافة. حافة الضوء، ذلك اللاشيءُ الذي يتلبس كلّ شيءٍ فجأة، ويأخذ بالامتداد من حافة الأريكة إلى أقصى الصالة إلى البوابة. ويتوقف دون الحديقة، دون البوكنفيليا المثقلة، وشجيرة المندلينا، ودون كل ما كان.

السماءُ لا تزال عاليةً، فضاءٌ شاسع من البرتقال والتركواز. وبعيداً تتغير أشكالُ البيوت وملابسُ الناس. ترتفع المباني الإسمنتية بجوار البيوت الطينية الصغيرة.الجدرانُ تتغير، تتهدم، وتنهض من جديد وخلفها الصحراءُ والغبار الدائم.
فيتوشا يغطيه الضباب. رماديّ وقاتم منذ أزمانٍ بعيدة. يواجهني في أي مكان أكون فيه. حاضرٌ إلى درجة معذبة. بالكاد تظهر خلفه السماء. بالكاد ينفذ الخيالُ إلى ما بعده. أخاديد وأثلام تظهر تحت الغيوم البيضاء الطافية. أخاديد وأثلام حتى نهاية الأفق المنخفض، واستدارة الأرض. لا أحدَ يتحرك في هذا السكون. ولكن بعيداً، ربما يبدو النهار مشرقاً، وتمتد ظلالُ البوابات: مدنٌ ومغادرون وراحلون. تلتمع المنائرُ وبحيراتُ النخيل وخطوطُ الأنهار الساكنة، وتخترق الصحراء خطوطٌ بيضاء طويلة متعرجة لا يبدو أنها تقود إلى مكان. وحيدةٌ تدور حول نفسها، نوعٌ من متاهة مهجورة.

يتوقف العابرُ في طريقٍ ترابي ضيق تضيء الشمسُ نصفه. جدرانُ بيوتٍ عالية بلا نوافذ. البابُ الخشبي، ثم الدهليز، فالحوش المظلل بالنخيل والسدر ورطوبة المياه. لا يبدو أن أحداً ظل في هذه الظهيرة غير عصافير الدوري، وآنيةٍ فخارية ملقاة حتى الفجر. لا أحدَ في الظل أو في النوافذ المطلة على الحوش. لا أحدَ على السطح حيث تسطع الشمس وتتوهج. البيوتُ المجاورة سطوحٌ خالية، والفضاءُ البعيد بياضٌ ونخيلٌ نحيل. ضرباتُ فرشاة باهتة في أقصى النهار.

في صالةٍ واسعةٍ. أرى نفسي محتشداً بالمنطق والموسيقى وتاريخ المدن والديانات السرّية. أراكِ وراء البيانو تضيء وجهكِ شمسُ أوائل النهار، وخلفكِ عتمةٌ أرجوانية. تتساقط نغماتُ الموسيقى. تتداح دوائرَ دوائرَ، تتسعُ وتتسعُ حولي وحولكِ.
حين كنا صغاراً، أعني وراء الزمان، في أجمةٍ غابية تحيط ببحيرةٍ مفتوحة على السماء، كنا نتطلع دائما إلى الفضاء، متوقعين أن تظهر الطيور. الطيور الآتية من بلادٍ لاسمها طعم التفاح والياسمين، ومن غير أن تلاحظنا تحط واحدةً بعد أخرى، تنزع الطيورُ ثيابها الريشية وتنقلب إلى نساءٍ يتراكضن إلى ماء البحيرة.

VI أشجار الليمون

البلاد صارتْ ظلالا
صارت ملآى بالظلال
(قصيدة سومرية)

حين تُوضع الآنيةُ المعدنية أو الفخارية على الرفوفِ أو أطرافِ المكاتب أو في زاويةِ الصالة، أو تُترك أحيانا على الأعشابِ حتى صباح اليوم التالي، يظل لها رنينٌ ولغةٌ، ألفةٌ وإحساس بالهوية، ولكن الأمرَ يختلف حين يكون إنسانٌ ماضي الآنية، مجردَ شيء معزول في هذا الصمت النائي بعد أن تحول إلى إناءٍ لا يصدر حتى الرنين، ملقى هكذا بين أربعة جدران.

هذا ما حدث بالضبط حين استيقظَ في صباح ذلك اليوم الأول من صيف أغسطس، صباحَ الجراد الزاحف، فبدا له العالمُ حسيس إشاراتٍ خرساء لا تقول شيئا. أو هي تقول شيئا إلا أنه لا يدركه وهو في حالة الإناء الساكن.
قبل ذلك بأيام أو شهور كان مطمئناً إلى أنه توصل أخيراً إلى إدراكِ قيمة أن تهتم بحديقتكَ الخاصة حديقةٍ حقيقية لا مجازية. ستةُ أمتار من العشب أمام نوافذ المكتبة تصل حتى حدود السور الحديدي المغطى بالياسمين. مساحةٌ صغيرة تتسع لتأملٍ باتساع مجرة هائلة. هكذا خيل إليه وهو يراقب هذه الكائنات الخضراء النقية من أي رغبة معذبة، بدءاً من الغرسة الرقيقة، وحتى الشجرة الكبيرة.
تستغرقه أكثرَ من أي شيء في العالم فكرةُ أن شجرةَ وردٍ واحدة تحمل أزهارها ملايين البذور، لو انتشرت بذورها على هذه الأرض لملأت كل زاوية فيها، بدءاً من المنحدرات الجبلية ووصولا إلى السهول الغامضة التي تتجه إلى البحار دائما.
على حافةِ أمتار العشب ثلاثةُ أنواع من الأشجار: التين والرمان والليمون، ترافقه حتى بوابة السور صباحا حين تكون الشمس في وجهه، وتعود معه مساءً مائلةً في الريح حين يعود.
تظهر بضعةُ أزهار بيضاء، وتتساقط بلا سبب، فلا تظل لشجرةِ الليمون إلا أوراقها الخضراء. يفكر بعمرِ إنسانٍ ما تتساقط أزهاره قبل أن يعرف أي ثمارٍ غامضة حلمتْ بها. الريحُ تعصف فجأة بين آونة وأخرى بلا سبب واضح، فتتنفس الأشجارُ الثلاث غربتها في وحشة الليل.

مع أشعةِ الشمس المائلة قليلا، شمس لم تظهر بعد من وراء البيت المواجه، مع ليلة الأمس التي مرت وكأنها لم تمر حتى هذه اللحظة، انقطع تسلسلُ شيء ما. توقف الليلُ ولم يأت الصباح. هذا الصباح الغريب جاء من مكان آخر. لم يبزغ من الليلة نفسها.
حتى أصوات قذائف المدفعية البعيدة التي يرتجّ بها أقصى الفضاء لم تكن حقيقية تماما. لا بدّ أنها تحدث في عالم آخر، كما حدث هذا الصباح في عالم آخر ولم يحدث هنا. في كل لحظة من لحظات هذه اليقظة ودَّ أن ينتزع نفسه فجأة من هذا الحدث الوهمي، حدث العراقيين الماثلين في قلب معنى ليس لهم، كما لو أن يقظته كانت حلماً وحلمه اليقظة التي أصبحت بعيدة المنال.
تأخروا كثيراً قبل أن ينتشروا في الأحياء الآهلة، وقبل أن يحتل الجنديُّ الخلدُ المكمن الإسمنتي، ويتجول الجنديُّ الجرادة أمام البيت المواجه، ويطل الجنديُّ العظاءة من نافذة السيارة، وقبل أن تغلق المداخل إلى الأمسِ والغدِ، ويتدخلوا في تتابع الزمن، ويقطعوا التواصل بين الحقيقي والوهمي، فيعلق الحقيقي وراء الذاكرة، ونقف في صحراء الوهم والظلال، ويتوقفوا مثل هذا اللاشيءَ الماثل في عمق الحقيقي على الأرصفة وأبواب البنايات والمداخل وتقاطع الطرق.
عند حاجز يلي الجسرَ مباشرة سأله جنديٌّ صغير السن، بعد أن طلب هويته، عن عدد أزرار قميصه، فرد مندهشا إنه لم يسبق له أن فكر في عدها. فتسامح الصغيرُ وقال:
"حسنا.. عدها.. وأخبرني في المرة القادمة"
لن تكون هناك مرة قادمة. الزمنُ لم يعد يتقدم أو يتراجع. لم يعد زمنا لشيء من الأشياء، كأن يكون زمنَ إنسان أو شجرة أو عشبة حتى. الزمن مصمتٌ وساكن مثل حصاةٍ ملساء.

جسدٌ يتشمّسُ ذات ظهيرة على سفح جبل فيزوف. تهتز الأرض. هديرٌ يحيط بكل شيء، وتندفع إلى السماءِ أدخنةُ البركان بضربةٍ قاصفة. تتدفق الحممُ على جوانب الجبل، يدرك الجسد نفسه خفيفاً ضائعا فوق هوةٍ لا قرارَ لها، يندفعُ هابطاً السفحَ متعرجاً مع تعرّج الصخور والأشجار والأعشاب، يلوح ويختفي، باتجاه السهل الهادئ.
نهرُ الحمم المصهورة يتدفق وراءه مسرعاً بين الأثلام، يطبق عليه، يطغى على أطرافه، يغرقه بأمواجهِ الساخنة، يقبض عليه وعلى صراخه، على أمسهِ ويومهِ وغدهِ الراكض إليه، بقبضة لزجة مصهورة واحدة، فيسكن الجسدُ الغارق في نهر الحمم، كتلةً ساخنةً مندفعة إلى السفح، تصطدم بالقاع، بالصخور، إلى أن تهدأ عند حافة السهل الذي بدأ يهتزّ الآن هزات ٍ متتالية، بينما يواصل الغليانُ اندفاعه نحو بومبي الغائمة الآن بسحب سوداء، وتتدافع في شوارعها الحجريةِ المظلمة ظلالُ الناس الهاربين. عتمةٌ غريبة ليست من هذا العالم ولا تنبع منه.

نعرفُ الزوالَ بطيئا ومتدرجا، وحتى صحوتنا على جثةٍ أو مقبرة أو شظية جرة فخار غارقة في الطين تكون صحوة متمهلة، لها من الأمس واليوم ما يمنحها مسافةً لتكون حزينةً متأملة يائسة. لا يخطر ببالنا أن الزوالَ ينبع من أعماقنا. يعيش معنا لحظةً لحظة حتى ونحن نتأمل الشمسَ المشرقة أو نمضي إلى مشاغلنا، حتى ونحن نخطو نحو بوابة المساء، ونمضي إلى مواعيدنا وحدائقنا، حتى ونحن نسهر على حافةِ الفجر محدقين فيه كما نحدق بنبضاتِ قلوبنا، مطمئنين إلى أننا أفلتنا من الزوالِ هذه المرة.

حين اكتشفوا الكتلة السوداء المتصلبة على أطراف السهل بعد ألفي عام، حقنوها بالجبس الأبيض، وكسروا الحممَ المتحجرة المحيطة بالفراغ الذي كان جسدا، فظهر الجسدُ منحوتةً بيضاء في بداهة الرعب الأولى، حركة هاربة إلى الغدِ تجمدت في قبضة لحظة واحدة. ظهرتْ ذكرى ظهيرةٍ على سفح فيزوف خرساءَ مثل بياض مطلق في يومٍ لامع وراء مئات الأعوام جاء من العتمة، عتمةِ

الشيء الذي صار إليه المكانُ والزمانُ، زمان ومكان بومبي وكل أشجار الزيتون والبندق والنسمات الرخية ولذائذ كل الشوارع المطمورة والحانات والأسواق وصياح النوارس البيضاء، وتمايل الدفلى في حديقة بيت يوليوس بوليبيوس.

في متحفِ نابولي تساءلتُ أمام المنحوتة البيضاء التي أكاد أسمع في قلبها الغامض دقات الفزع والشهوة والرغبة والبكاء:
"لماذا انحدرَ هاربا في تلك الظهيرة ووراءه الجحيم المنفجر؟"
لأقل أنه كان أسرعَ من نهر الحمم، أو نهرِ الزمن الذي تحول إلى حمم وأدخنة وهزات أرضية، وانضمّ إلى قافلة الأشباح الناجية من المدينة وفوقها يتساقط الرماد والظلام، لأقل أنه سيتذكر في مكان آخ، روما مثلا، هذا الغبار الهائل المعتم،.. إلى متى سيعيش؟ سنة.. سنتين.. أو مئة.. ثم ماذا؟ ألن تكون النتيجة واحدة: الموت في أي مكان يكون فيه؟
أنا من يراه الآن من مكاني هذا زمنا مصمتا ومكاناً لا منفذ إليه، سواء أكان تمثالا في متحف، أم كتلة متحجرة سوداء، أم ذرات في هذا الغبار الكوني الذي لا مهربَ منه، أنا الذي أراه من مكاني هذا سأقول ببساطة: النتيجة في كلا الحالين، حال النجاة أو الموت، ستكون صفرا.

.."أثمنَ شيء أن نفكر بالحقيقي، بالملموس، بالحديقة الصغيرة" ..
أفكرُ بالشجيرات الصغيرة التي بدأتُ أزرعها، بعطش التربة التي احتاجت إلى السماد والماء، بصفوفِ الأشجار المتيبسة، بالذاكرةِ التي تحاول أن تتذكر بصوت مخنوق مقاطع أغنية، شظية من وجه مألوف. يضطرب الجسدُ ويهتاج تحت وقع أصابع خيالاتِ الأمس. اليوم لا ينبع منه صدى. الأشياءُ منتزعة من إطارٍ متخيل، من مجردٍ يغطي كلّ ما نلمسه ويخفيه أو يجعله نائيا.

VII أزهار الداندليون

غير أن الزمن يسرع
سترى أغنيتي الزائلة اليوم الذي يسميكِ
(هلدرلن)

مع مرور أصابعها على مفاتيح البيانو تتدفق موجةٌ سريعةٌ شبيهة بمرور نسيمٍ يتموّج على مياهٍ صافية زرقاء. ضربةٌ أولى، افتتاحيةٌ تأخذ بالظهور مثل أول صباح أو صحو جميل.
صوتُ الموسيقى أشدَّ حنانا من الليل، من أوائلِ النهار. همساتُ البوكنفيليا في وحشتها الأبدية، ظلٌّ ونورٌ يتضاعفان، دوائرُ متوالية من المركز، من ضوءٍ نحيل ينسكب على الأصابع وحدها، هالةُ الشعر غمامةٌ تمتزج بالمساءِ خارج النافذة وبريق أشعة الشمس الغاربة، دقةٌ، دقتان، ثلاث.. تنداح

الدوائر حولها، تهبّ الرياح، موجٌ يقاطع صوتَ قطراتٍ تمضي بعيدا بإلحاح، تواصل الغيابَ في مياهِ بحيرةٍ لامرئية.
الطائرُ الفخاري الملونُ فوق غطاءِ البيانو الأسود. ألوانه تتغير، تشفُّ، تتطاير، تنداح أشرطة ملونة. لا زالت السيدةُ في حديقتها تقلبه متسائلة، تنهض وتضعه جانبا، تنساه، لا زالت الأيائلُ تصغي بانتباه من مكمنها في الغابة إلى حفيف الجسدين وصفاء النبع والزمن الذي طَرّق وامتدّ مثل رقاقةٍ ذهبية، والدوائرِ الآتية من بعيد، دوائر أصوات البيانو الآتية من كل الجهات.

نبعُ تريفي لا ينهمر وحيداً على أجساد التماثيل المرمرية العارية المعتمة، لا يسيلُ وحيداً على أعضائها اللامعة منحدراً إلى البركة، إلى الظلال، نبع تريفي.. يحيط به النسيمُ موجة إثر موجة، يغيّر إيقاعه، يبدأ بالتساقطِ أيضا. تتمهل الأمنياتُ أكثر، توازن تمتماتها مع كل قطرة صوت، وكل هبة رياح على مفاتيح البيانو.

لا زال الثلجُ عاريا، إلا أنه مغمورٌ ببياض الموسيقى، باهتزازاتِ الصوت الآتي مدوّماً، شاملا، مبتهجا، كما لو أن ثلجَ الأبدية نفسه بدأ يباشر تساقطه في الهزيع الأخير من الليل، كما لو أن جبلَ فيتوشا نفسه يختفي تحت البياض ويتحول إلى أجمة حية تتشرب النغماتِ هادئة مستغرقة في طفولة منسية، كما لو أن هذا الكائنَ العابرَ في أزقة صوفيا الموحشة يمتد ظلهُ ويتجاوز الجدرانَ إلى التضاريس الخالية تحت الغيوم البيضاء، حيث تتراءى الأخاديدُ الجبلية وانبساطُ السهول وطرقات الصحراء البيضاء.

سريرٌ ملكيٌّ من خشب السرو والريحان في غرفة نصف مضاءة بلهبٍ يخفق في الزوايا الأربع. إلاهةٌ من موسيقى وشذى، نصف عارية في العتمة الخفيفة، تتمتم مثل سفينةٍ جانحة في الضباب. تجيءُ مع الليلِ الذي بدأ لتوه عنيفة ضرباتُ الأصابع على مفاتيح البيانو، تنحدر سريعا، تموّج

الهواء، تتحول الالاهةُ إلى قطراتٍ على أهبة التساقط والذوبان. الليلُ في أوله، والبهجةُ في القلب وفي الخارج يحتفل الناس.

بعد ستة أيام استيقظَ ، تفتحتْ حواسّه وامتلأتْ بالفلِّ الأبيض حتى أقاصيها. وفهمَ وهو يتطلع إليها، إلى جسدهِ، الكلامَ والألوانَ، واكتشفَ لأول مرة كم هي عميقة زرقة المياه، وكم هو ناعمٌ ملمس الريح، وشفافٌ ذلك الصباح، وكم هي قريبةٌ من قلبه هذه المرأة النائمة.

النساءُ في خزانات الجوز يرتجفن حناناً. الكتبُ والأوراقُ والنظاراتُ وقطع الدانتيل المرتبة بعناية المناضدُ والمقاعدُ وزجاجُ النوافذ الواسعة، الحدائقُ والمقاهي المظللة تحت الشمس النحيلة، شجرُ البابونج العالي بأوراقه الصفراء، حباتُ الكستناء الساقطة منذ مطر الأمس.
تجمع طفلتان أزهارَ الداندليون الغزيرة بين الأعشاب، تضفر كل منهما إكليلا، تتبادلان الأكاليل، تركضان متضاحكتين، تختفيان بين الأشجار.
ينحدر صوتُ البيانو، يتخلل أشجارَ الصنوبر والكستناء، يمرّ مع التماعات الشمس المتوالية في ممرات الغابة، يتغلغل، يتداح مع اتساع نهرٍ وحيد تحاذيه أجمةُ قصبٍ حتى مصبه الأخير.. في عمق لاتصل إليه إلا أصوات الصمت.

بضرباتِ أصابعها تتجمع النغماتُ. طيورٌ تطير عاليا، تتباعد أو تتساقط أو تهدأ في حقول بعيدة في السماء. النغماتُ تأتي من المركز تماما، كأنما من عمق عاصفة ترقُّ بعيدا تحت النجوم، تنبسط مثل رياحٍ رخيّة، تتموج بلا توقف حولها، وحولها، الأصابعُ المضاءةُ وحدها في العتمة تتلمس جسدَ السكون، جسدَ الكون نفسه برقة أنثى أصابها الندى، ندى أول صباحٍ في الوجود.

السفر الثالث

I الدفلى

وسمعتُ العشب البري يتنهد:
لا عودة.. لا عودة
مرة أخرى
(جيمس جويس)

بعد ملاحظةِ الأستاذِ المشرفِ على المرسمِ توقفتُ عن إكمال اللوحة. حاولتُ تحديدَ مصدرٍ واحدٍ للضوء وإعادةَ توزيعه على وجهها وعلى الأشياءِ من حولها بلا رغبة. ربما لأنني أحسستُ أن الضوءَ الساقط من كل الجهاتِ ينشئ متاهةً محبّبة بين وجهها وحافة النافذة والمقعد المجاور وحوامل اللوحات الملطخة بالألوان الجافة. ربما ملتُ إلى وضعها تحت شموسٍ عديدة، أي تحت أيام لا تحصى. ربما كان الأمر مجرد لعبةٍ ، لعبة للانفراد بأنثى منحرفة على مقعدها أمام ثلاثة تلاميذ جاءوا من قرى بعيدة بإناثٍ غامضات سيأتين من أيام مجهولة.
السببُ الحقيقي والبسيط هو أن الأول الذي أنهى لوحته كان قد استحوذ عليها تماما، ألواناً وخطوطاً استحوذ حتى على فضاءِ الغرفة الذي جعل شفافيته الحمراءَ تماثل شفافية بشرتها الوردية وشفافية المقعد الأزرق المعتم. أصبحتْ قديسةً ناسكة نائية يميل إلى جانبها غصنُ دفلى بأزهار حمراء ملتهبة. لم تعد هناك فتاة يمكن رسمها أو اصطياد لمحة منها، استحوذ عليها. لم يعد هناك ضوءٌ

يستطيع النفاذ إلى لوحته. لم يعد هناك مرسمٌ ورسامون وأساتذة. استحوذّ عليها تماما، هي والدفلى الصباحية التي نصادفها دائما عند بوابة الكلية تتمايل تحت ريح خفيفة، ويتخلل الضوءُ كثافة أوراقها الخضراء.

بيدٍ هادئة وواثقة ووجهٍ يبدو عليه انشغالٌ كأنما بموضوع آخر، بدأ يضعُ ما سمّاه اللمسات الأخيرة. يعمّق محيطَ الوجه والرقبة والكتفين، يبعدها أكثر عن سطح اللوحة باتجاه أبعدَ نقطة في المنظور، يحول شعرها المنسدل إلى غمامةٍ كستنائية على أرضيةٍ حمراء شفافة. يصبّ سائلا على غصن الدفلى ويحرقه، فيسيل الأخضرُ والأحمرُ ويتجمد، ويبتعد بضعة أمتار إلى الوراء، ويعلن أنها انتهت.

هكذا نسيتُ اسم الفتاة. لا أتذكر سوى جلستها المنحرفة ونسماتٍ من شعرها المتطاير وهو يتحول إلى غمامة. ثلاثة تلاميذ ورائحة التربنتين تملأ المكان، المقاعد واللوحات وقمصاننا وأصابعنا، وتظل زمنا طويلا بعد أن نغادر المرسم.

"الواضح أنك رسمتها في أوقات مختلفة"

"بل في صباح واحد.. فقط"

لا يلتفت الأولُ الذي بدأ يستعد للمغادرة كأن الأمر لا يعنيه، أما هي فظلت عيناها معلقتين به دون أن تعدل من جلستها.

في مثل ذلك الصباح، وبعد سنواتٍ، ستندفع إليّ جين ما أن ينفتح باب شقتها، وتلتصق بي عابقة برائحة دفلى بعد ليلة ممطرة، تسحبني إلى جوار المدفأة الحجرية، المدفأة نفسها التي أصغت إلى قصيدتي عن الحب الأول والله الأول، وأنا أحدق باللهب المتراقص بين أخشابها في أواخر الليل.

أسرابُ الدوري تحطّ مثل خيمةٍ مرتجفة على الشجيرة الصغيرة، ووراؤها شفقٌ على حافة العتمة، ونحن في طريقنا إلى التل البعيد. يحدث هذا في كل ليلة وعلى حدود الفجر ربما، في مكانٍ ما على مسافة عشرين ربيعا أو أكثر. يحدث ويتكرر مثل مشهدٍ يختبئ فيه نبعٌ مجهول. لا تظهر الشمس، كأن حقول الذكرى تأخذها ملائكةٌ خفيةٌ دائما، ترحلُ بها من دون أن نشعر أو تشعر الأمكنة. شربنا وضحكنا وتجولنا وكدنا نبكي من ألم الاشتهاءات التي لم تغمر الروح حتى جذورها.

أسرابُ الدوري تطيرُ في سماوات بعيدة فوق بحيرة نخيل تتماوج تحت مرمى أنظارنا من شرفة خلفية تطل على حديقة منزلية متشابكة الأغصان فوق ظلال رطبة ومعتمة. في تلك اللحظة حدث شيء غير متوقع، بدأ زميلي ينتحب فجأةً، وينهنه وهو يشير إلى الأسراب البعيدة مثل معتوه فقد

حاسة النطق، ولم يعد يستطيع سوى الإيماء واجتذاب نظري إلى شيء ما لا أدري ما هو: نحيبه المفاجئ أم نقطة بعيدة لامرئية؟
لا أفهم ما يومئ إليه، ولا يفهم بدوره ما الذي يعنيه البكاءُ على مشارف العشرين أمام مشهد عصافير الدوري في أعماق الفضاء. كلانا أصغرَ من أن يدرك ما يمسك فينا هذا الحس بالفناء والزوال.

تعترض جين بنبرةٍ قاطعة ومشفقة:
"لو تترك الفلسفة يا صديقي لسارترْ أحداثُ نصك بشكل مختلف"
" وهل في روايةٍ مشهدٍ فلسفةٌ من أي نوع؟"
تقاطعني وارتجافةٌ تسري في صوتها:
" توقفْ عن هذا، ما رأيك لو جئتني الليلة لنحلّ كل مشاكل الوجود دفعة واحدة؟ قل نعم.. أو لا.."
شجيرةُ الدفلى عند بابها تعني الصيف، أما الشتاء فله مغزى آخر، مئات الليالي الماطرة أو الليالي الثلجية أو الليالي الصافية فوق واد عميق ترقد بين تعرجاته طليطلة وجسرها الحجري القديم..
"لا" ..
كتبتها أمامها على الورقة وبحروف كبيرة، فغامتْ خضرةُ عينيها وتدحرجت دمعةٌ مدهشة ثم أخرى.

ما كدتُ أطوي أوراقي وأتهيأ للنهوض عن طاولة نادي الكلية حتى لمحتها مرة أخرى. كانت هناك منذ زمن طويل، تقف جانبا وبين يديها كتبها، لا تتطلع إلى أحد سواي. الشمسُ على وشك مغادرة ساعة الصباح الأخيرة، لا تزال أشعتها تضيء زجاج النوافذ، فتجعل شكلها ظليا لا تظهر معه ملامح وجهها. لا شيءَ سوى محيط جسدها وشعرها المضاء الساكن.

ينصحنا الأستاذُ بالتسجيل في أكاديمية الفنون، في القسم المسائي..

" أنتم ترسمون أفضلَ من تلاميذ الأكاديمية"
ومع قليل من التدريب وتحت إشرافه يمكننا أن نبث الحياة في صور أحلامنا، نحن أكثر رغبة لأننا هواة، الشاعرُ هاو عظيم للحياة.. إلخ. أفكرُ بأجواءِ الأكاديمية اللزجة ورائحةِ الأخشاب والفراغ المتثاقل بين ممراتها، والقلة المتناثرة من التلاميذ على مقاعد حديقتها الخلفية، وذلك الفنان الذي فاجأنا مستلقيا على ظهره في قاعة المعرض، وهؤلاء المتجولين ببناطيل تشبه أكياس الخيش مع الفتيات الجميلات. أفكرُ بما يعنيه أن تتثاقل أيضا، وتمرّ عليك الظهيرةُ ونسائمها بين الأشجار، أو خلف نافذةٍ تطل على حديقةٍ مهملة تتناثر فيها تماثيلُ صدئة ولوحات نصف عارية.
يقول الزميلُ الثاني بشيء من الحماس..
"لا نظريات في الأكاديمية، ممارسة فقط، لن نتعب فنحن فنانون بالفطرة"
لم يكن شعره الخفيف وفكه المتصلب مثل فك مصارع يوحي بأن غايته الفن، ربما كانت غايته الهرب من الكلية. حماسه الذي بدا لي بلا رصيد جعلني أتجنب صحبته بعد ذلك طوال سنوات.

هذا هو مرسمنا، سأقودكِ إليه يوما، إلى الفراغ الذي تركه في أعماقي من دون أن أسمع نفسي أنتحب فيه، لا شيءَ سوى هذه الحمرة القانية، حمرةِ أزهار الدفلى، وألسنة اللهب الخفيفة وهي تتموج بين أخشاب سوداء، لا شيءَ سوى قطراتٍ مطر ملتمعة. الجسدُ الظلّي لفتاة الانتظار الطويل يضيء محيطه ضوءُ شمسٍ صباحية.

تناديني ليلى.. ليلى .. هذا هو اسم فتاة المرسم يقفز فجأة من الظلّ الذي كانت تجلس فيه على مقعدها في أقصى الحديقة. تنتبه جين وتصاب بالدهشة..
" كيف تذكرت بعد كل هذه السنوات؟"
"ربما هو الفراغ.. ذكرى الفراغ "
" واصل القراءة.. واصل.."
وتسند ذقنها بيديها وهي مستلقية على صدرها على السجادة وعيناها تحدقان ساهمتين باللهب المتراقص.
كنتُ في طريقي إلى بوابة الخروج، ولمحتها وحيدة هناك، وواصلتُ سيري، وقبل أن أصل إلى البوابة كانت تناديني باسمي، ولأول مرة كأنما منذ بضعة قرون.
أيامُ المرسم انتهت، والكلية تكاد تغلق أبوابها، ها هي وحيدة نائية، تثير شفقتي. هل أستولي عليها فعلا؟ لوحتها في زاوية غرفته الرطبة الآن متوحدة أيضا..

" أراكِ وحدك..؟ "
"اجلس معي.."
وأوسعت لي مكانا إلى جانبها.
"غادر الجميع، فالإضراب عم كل شيء، لا أدري هل سنكمل هذه السنة أم لا"
"لا أدري.."
"ماذا ستفعل؟ "
"ربما أغادر الكلية إلى الأبد، لا يبدو أن لهذه الإضرابات نهاية"
" وأنا سأعود إلى مصر.."
أستاذُ الابتدائية الأسمر الساخر يجلس على حافة الطاولة بينما يرتفع الضجيج خارج أسوار المدرسة، وتمتدّ يد تلوحُ من وراء السور. أحد الأساتذة يغلق البوابة..
"لا زلتم صغارا وهذه أمور لا تعرفونها الآن، سيقال لو أمسكوا بأحدكم خطيّة.. لا.. خطيّة حطه في القوطية!"
لم أفهم شيئا، وبخاصة هذه القوطية، رأيت فقط تلك اليد الملوحة من وراء السور.
العشبُ يتماوج في الحديقة المقفرة، لا أحدَ سوى عدد قليل من التلاميذ يتجمع في زاوية بعيدة، لا تصلنا أصواته.
وقالت ليلى فجأة ..
"سأسافر على أية حال.."
لم أعلق. السفرُ كلمة تتسلل من صفحات رواية أو قصيدة، أو عبارات متناثرة لتلاميذ جاءوا حديثا من أسماء.. أسماء أمكنة في هذا الكون.. وتضيف:
"حياتنا هنالك أجمل.. هؤلاء لا أدري بماذا أصفهم"

أختي الستينية تهتف فجأة:
" دفلى.. دفلى..!"
الشريطُ الساحليّ يعج بأشجار الدفلى بين آونة وأخرى، والبحر أزرق يكاد ينفتح لولا بيوت متزاحمة تقطع مشهده بين مسافةٍ وأخرى. ألمحُ عصافير الدوري حين يكون الجو صحوا، أما حين يهبّ الغبار فلا أثر حتى لأشباحها، إنها تلهو في القصائد أكثر مما تلهو في الطبيعة، وتزقزق في الذاكرة أكثر مما تزقزق في شجرة السدر البيتية.

ذات نهار وفي باحة البيت، حين تملأها شمس الظهيرة، وتلتمع المياه الرقراقة بين الأعشاب وتتجمع حول جذع السدرة الظليلة، تسكن العصافير، ويظهر أحدها منفردا يقفز في أرجاء الباحة، ويهرب إلى الظلّ حين تبدر حركةٌ من غصنٍ حرّكته ريح عابرة.

تتهاوى الآن مدنٌ كثيرة كما في الماضي، ولكننا لا نراها لأن منظورنا قصيرٌ وضيق جدير بسرب من النمل في أحضان جبال هائلة.
" وحتى الماضي، ما الذي ندرك منه نحن النمل الذي يدهشه ارتفاع شجيرة الحمص، تلك التي يقال أن كل مئة من شعب ياجوج وماجوج سيستظلون بواحدة منها؟"
بهذه اللهجة نصف الساخرة ونصف الحكيمة كتب زميلُ الغرفة المنتحب أمام نقطة غامضة في الفضاء، قبل أن يسافر إثر الإضراب الطلابي الكبير، ويترك بين أوراقي دفتر ملحوظات متناثرة.
أما كيف تستثير الدفلى شهقة الحسرة وذكرى الأفراح التي لم تر النور، فأمر لا يزال يحيرني. لا شك أن معناه أننا لسنا نملا مندهشا، ولا وجوها منتحبة على مشارف العشرين..
"سيكون للبكاء وقت كما للفرح وقت.."
تعلق جين ساهمة مقاطعة جملتي الأخيرة .

على شرفةِ أكاديمية الفنون طاولةٌ وجندي مظلي مد ساقيه بحذائه الضخم في مواجهة الشارع والناس. أيقنتُ أن شيئا غير مفهوم يحدث، وأن خطأ ما جعل مثل هذا التلميذ يواصل عمله العسكري، فيجلس على الشرفة وبندقيته تتدلى من كتفه. ما علاقة الأكاديمية بالانقلاب العسكري الذي حدث منذ شهر؟ ربما كانت الأكاديمية هدفا مقصودا لطلبة فاشلين في الرسم والنحت، فارتدوا بزات عسكرية واحتلوها انتقاما من أساتذتهم، أو انتقاما من المنحوتات الجميلة التي أسالت لعابهم وتلمظوا أمامها وهي تتكئ على زوايا الحديقة..
"تم إغلاق قسم الدراسات المسائية"
وتم إغلاق شيء في الهواء يشبه رائحة النخيل وشبكة القنوات التي ترويها منذ الخليقة. لم يتغير شيء من ملامح الأستاذ المتهدلة وهو يتلو الخبر، وواصل تمرير ريشته ببطء على أشباح القرويات الملفوفات بالسواد، القرويات المتناثرات على قماش لوحته منذ زمن بعيد تحت إضاءة وحيدة محددة بدقة، وسماءٍ كابية يشوبها الإحمرار.

II زجاجة الروح

.. والآن أيتها المرأةُ الشابة، يا صانعة الخمر،
ما دمتُ رأيت وجهكِ لا تدعيني
أرى وجهَ الموت الذي أخشاه

(من ملحمة جلجامش)

أتذكّرُ صياحَ النوارس الذي كان بالأمس، النوارس البيضاء ذاتها تحلق وتنقض على الماء كما كانت دائما، وبعضها يتناثر بقعا بيضاء نائية طافية فوق نهار ارتفعت شمسه قليلا.
ضحى ذلك اليوم استيقظ صاحبُ بار بابلون على مقعده الطويل المجاور للباب بين الطاولات والمقاعد الخالية، واستيقظت الفنزويليةُ الغاضبة التي خففَ غضبها أنني فينيقي لازال يتجول بين الجزر منذ مئات السنين، واستيقظتُ على شاطئ لارنكا على صياح النوارس.
تحداني صاحب البار الطويل أن أواصل الشربَ حتى الصباح لأثبت له أن عمق معرفتي بأصل الأسماء التوراتية المحرّفة يوازي قدرتي على اليقظة، فما دمنا اجتمعنا في باب الله، فهي فرصة نادرة لنتحقق من قربنا أو بعدنا عنه، وطلبَ من ساقية البار الفنزويلية أن تراقبني لتؤكد لي فيما بعد عدد الساعات التي نمت فيها.. ولاحظتُ مؤكدا على نظرتي:
"الألسنةُ تتوحد في باب الله عادة ولا تتبلبل إلا حين تنقطع الخمرة"
لم يبقَ من الرواد إلا صخبَ البحر البعيد، ومشهد صفصافة تلوح من النافذة، وخلفها أضواء لافتات خرساء، وأمامي شفتان بلون الخمر. الخمر الذي يكون أرجوانيا أحيانا، وبنيا داكنا في أحيان أخرى.

قالت الفنزويلية التي لم تشهدْ خطواتنا في الغابة، ولا أرجوان البوكنفيليا الطافحة فوق أوراقها الخضراء المعتمة، ولا استمعتْ إلى اصطفاق المياه على جوانب مرسى القوارب الفينيسي:
" ما الذي جاء بك إلى هذه الجزيرة؟ "
قلت..
"الأصدقاء.. الأصدقاء فقط"
ناجي يرقد عميقا في النسيان، أشجار النسيان، مقاهي النسيان، صحف النسيان، كل شيء يتحول إلى بحر من النسيان.
"ما الذي تريد أن تنساه؟"
"بل قولي.. ما الذي تريد أن تعرف؟"
تزمّ شفتيها كمن رأتْ كلّ شيء، وتتمتم هازئة:
"تريد أن تعرف..؟ ما الذي يستحق المعرفة في هذا العالم؟ نصيبكَ أو نصيبي أن نحسّ بالأشياء كما تصطدم بنا أو نصطدم بها، نصيبنا هذه المتعة التي لا نملك غيرها أو هي لا تملك غيرنا.."
"مفزعٌ أن يكون العالم زهرةً بهذا الاتساع والنسيان وهذه اللامبالاة، تلتهم كل شيء.."
"لا أفهم الشعر ولا أحبه، أعرف فقط أن أعيش وليكن ما بعد ذلك الجحيم.. بدأت عيناكَ بالذبول.. دع كأسكَ جانبا.."
"لا.. هذه فكرة.. مجرد فكرة ذابلة عبرت.. أحيانا أتذكر الابتهاجَ فأتحول إلى حقلِ نوّارٍ مشمس تحت رذاذ مطر خفيف، وأحيانا أتذكر الكآبة فأتحول إلى هوةٍ قاسية، أنا أذبل فجأة حين أتذكر الملائكة التي تحمل أصدقائي إلى أماكن مجهولة.."

استيقظت امرأةٌ رقدتْ في خزانة الجوز عدداً من السنين، فوجدتْ إلى جانبها أشياءها الأثيرة: نظاراتها الطبية، دفتر المذكرات، أقلامها، فساتينها، وأحذيتها الحريرية. لم يكن يُسمع صوت سوى صوتِ تنفسها الهادئ، وفي الخارج وشيشٌ خافت لندفِ ثلج لا زالت تتساقط.. وتتساقط. سطوحُ البيوت بيضاء، ورؤوس أشجار الصنوبر تبيضّ في الظلام، الأرصفةُ وأعشابُ الحدائق، بياضٌ في كل مكان، إلا أن جوَّ الخزانة كان دافئا مثل أغنيةٍ عالقة منذ الأمس في الهواء، نغماتها مألوفة إلى درجة ضجّ معها قلبُ المرأة بالدماء الساخنة.
حين فتحتْ باب الخزانة، لفحتها الظلمةُ، وتدفقت فجأة فأشعرتها بالقشعريرة، بالتوحد، وامتلأ هواءُ الخزانة بالظلمة. وأدركت المرأةُ حين خرجتْ أنها تقف عاريةً تحت ندف الثلج المتساقط. لا شيءَ

حولها سوى البياض إلى أبعد مدى. وحين رفعتْ عينيها إلى السماء التصقتْ بشفتيها ندفة ثلج وذابت، وأخرى وذابت. لم ترَ غير فضاءٍ بلا نجوم ترفّ فيه ندفُ الثلج مثل طيورٍ صغيرة بيضاء.

غالبُ يلعن الكتابة في أواخر أيامه، ويلعن روائيا بليدا يودّ أن يكفّ عن التدخين لتظل له بقية من عمريكتب فيها المزيد من الروايات. ويتساءل وهو على المقعد نصف غاف ونصف نائم :
"كم يحتاج الإنسان من البلادة لينفق أثمن ما يملك على الكتابة.. والكتابة فقط؟"
المروجُ.. المروجُ فقط ما يتراءى أمام عينيه، خبزُ الصاج ودخانُ القرى المرتفع، دخان الصيادين والرعاة في تجاويف الأودية. النعاسُ وحده جديرٌ بهذه المتعة. نعاسٌ خفيف يزداد ثقلا في أمسيات دمشق المتوحدة، تطيرُ فيه طيور تسبب القلق، طيورٌ صامتة، خرساء تحلق في فضاء ساكن. لا رداءَ سوى الريش أحيانا، ولا طعامَ سوى التراب.

تطلعَ صاحبُ البار حوله إلى المقاعد الخالية، وإلى أشعةِ شمس الضحى التي ارتفعت، وتطلعتْ الفنزويلية إلى فراشها أو سفينتها كما كانت تقول، السفينة الوحيدة التي ربّانها الريحُ والرذاذ، وتطلعتُ إلى حافة البحر الخالي إلا من السابحين والمظلات. الساحلُ يظلله خطّ طويل من أشجار النخيل الهندي الباسق، ووراؤه أقيمت أكشاكُ الساندويشات وأدوات البحر والمجلات والصحف وأنصاف العراة والنظارات السوداء.
حتى في هذا الصحو الهادئ، حين تمرّ نسماتٌ بين آونة وأخرى لا أستطيع مغالبة النعاس، والتوقف عن القراءة، والتوقف عن التحديق في أجساد النساء العاريات المتناثرة، والغوص عميقا في أنداء بعيدة.
سافاثا ترقد بعيدا في الصحراء. عقودها العباسية. طرقاتها المتربة. تتدفق المياهُ وترتفع حتى أعلى نقطة في مبنى معبدها المهجور. تحت المياه دائما تحلقُ طيورٌ بيضاء. تبترد النسوة وتتماوج الظلال.
قالت الفنزويلية متنهدة:
"أيها الآرامي التائه.. أيها الفينيقي.. أيها الفلسطيني.. أيها اللا.. شيء"
وتوقفتْ حركةُ الشفتين، وازدادتْ ضراوة عينيها المتوحشتين، وترك صوتها المبحوح من أثر الخمر والتدخين والنواح الجنائزي ربما، خطاً أرجوانيا، ثلما في الهواء المشدود بيننا.

"أتعرف.. إستأثر الله وحده بالبقاء ومنحنا الفناء.. ولكن ليس بلا متعة.. سترجع من حيث أتيتَ بلا كتاب ولا آية، آيتكَ النبيذ والمزيد من النبيذ وأحضان الزوجة ونشوة الأطفال"
حافةُ البحر أو حافة العالم أو حافة الرغبة، أسمعُ الصوت المبحوح:
"سأجعلكَ كاهني الوحيد.. متاهتي الوحيدة"

في ليلةِ القصائدِ اليونانية المكتوبةِ كيفما اتفق على هوامش كتابٍ، في منتصفِ الليل الأثينيّ الذي ظلله الصفصافُ، وتناثر فيه مقطعُ أغنية لعابرين في الظلام، أحدث ظهورُ المرأة المجهولة واختفاؤها رجفةً في عمق الليل ظلت تمتد وتتسع. وما أن ارتفعتْ شمسُ النهار حتى حدثتْ تماثيلُ المتحف والقروياتِ الحاملات الأفاريز، وفجواتُ الطريق المتعرج الصاعد إلى مغارة الكاهنة، حدثتْ صخورُ جبل برناسوس الصاعد حتى الغيوم، وأبحرتْ سفينةٌ تكتظ بالسائحين إلى الجزر اليونانية، بينما كان الحمامُ الأبيض والرماديّ يتناثر ويحط على الأكتاف والأيدي وبلاط ساحة السنتجما بين انتشاء الأطفال وصراخهم، وهدير السيارات العابرة، وبهجة بائع الذرة العجوز القابع في الظل بقبعته الرمادية ومعطفه البالي..
"المرئياتُ لا تشفّ إلا في عمق الليل، أو هي لا تكون كذلك إلا لأنها تسافر في الليل دائما، وما أن تقترب حافةُ النهار حتى تلجأ إلى مدنها الخفية" ..
لا بدّ أن المرأة المجهولة قالت هذا، و نقشته على صخرة بين هذه الصخورالمتناثرة. صخرة بيضاء لامعة امحت أو تحولتْ إلى مسحوق أبيض، أو أخذها فلاحٌ وجعلها في أساس جدار مهمل، ونُسب النقشُ إلى إحدى كاهنات دلفي، كاهنة انتشلوا جثتها من النبع المقدس.

"اغمضْ عينيكَ.. وستجد نفسكَ في سافانا قبل أن ينتصف النهار أو قبل أن يرتد إليك طرفك.."
وافترت شفتا الفنزويلية القاتمة عن بسمة ساخرة..
"وإليكَ هذه الزجاجة وهذه القواقع البحرية.. حدقْ جيداً، هنا صفصافةٌ أيضا على باب.. ماذا؟ باب الله كما سميته، وهنا امرأة ستعود إلى سفينتها، سفينة الأشباح، وتنشد بهدوء أو تغني رحيلكَ مهدهدةً مثل.. مثل بحرٍ عميق يشبه خمرة داكنة.
ونهضتْ متموجة وهي ترد أطراف فستانها على فخذيها، ودارت حول نفسها دورة كاملة.
الشمسُ في ضحاها، حفيفُ أجنحة النوارس يملأ الشاطئ، حافةُ البحر موحشة.
"اغمضْ عينيك.."
هل قالتْ ذلك حقا؟ أم أنني تخيلتهُ بين النعاس واليقظة؟

انتشروا على المنحدراتِ المطلة على الشواطئ مثل بحارةٍ أغرقوا سفينتهم، وبدأوا بقطع الأشجار وإقامة المخيماتِ على شاطئ منعزل ربما ينحدر إليه أطفالٌ في مقبل الأيام، أطفالٌ متوحشون قادمون من مدنٍ خربة، من ثلاجاتٍ وناطحات سحاب ومنتجعات ويخوت جانحة تحولتْ إلى هياكل تعبث في مياهها أسماكٌ صغيرة مبتهجة، وتطفو طحالبُ وأشناتٌ وصناديق عطور ومجوهرات خالية، وحمولةُ سفائن أبحرت بلا مسافرين ولم ترجع أبدا.
بين الفينة والفينة كان يرتفع غناءٌ في هذه الخيمة أو تلك، أو تصدر صرخاتٌ مرحة بين أشجار الصنوبر، أو أصواتُ أقدام حافية تتراكض ضاحكة بين الظلال، أو تتناثر نغماتُ ماندولين متوحد.

أغمضُ عيني لأقترب من الحلم أكثر، وأرى نفسي في نقشٍ مطموس على صخرة عند أطراف الصحراء غارقة في الرمل والريح، أحيانا تلجأ إليها الثعالبُ أو تستريح قافلةٌ مسافرة فتعلق عليها تمائمها وتوقد نيرانها في العراء.

أصيب جسدُ الفنزويلية باليأس، فاختارتْ هذه الحانة المنزوية في شارع الصفصاف لاصطياد العابرين، وتعليقِ أرواحهم في زجاجات أرجوانية لامعة تصطف وراءها على الجدار. كانوا يأتون بأرواحٍ كاملة تصرخ في أرجائها النوارسُ البحرية، ثم يمضون أشباحاً بلا ذاكرة، تحمل القواقعَ البحرية ومشهد النافذة والسفينة التي ربانها الريح والرذاذ.
حين عدتُ ونظرتُ إلى روحي المعلقةِ هناك على جدار باب الله الخالي، كان الضحى في آخره، والنسماتُ العابرة تعبث بستارةٍ من خيوطِ خرزٍ مدلاة على الباب، فتصدر وسوسة وهي تحتك ببعضها.
الروحُ لا تُرى، إلا أن الخدوشَ على سطح الزجاجة الأرجوانية ترسم تعرجاتها، وتمنحها شكلها اللامرئي، وتمسك بها في هذا الحيز الضئيل، حيزٍ يذكّر بكل شيء: بالبحار العميقة والأودية النائية، والسماوات والكنائس المهجورة والمساجد المندثرة، والمدن، المدن التي يهبط الثلجُ خفيفا على

تماثيلها الحجرية، وساحاتها الخالية وطرقاتها المتشققة. هنالك في الصدوع تنمو الأعشابُ وتتكاثر أزهار الداندليون الصفراء اللامعة تحت شمس الظهيرة.

III الفاختة

..ولأنه عندما يغمغم بكلمات الحب،
ستهجره وحوش البرية التي تشاركه حياته في التلال

(من ملحمة جلجامش)

هدأتْ أصواتُ المحررين وآلاتِ الطباعة في منتصف الظهيرة. هدأتْ أصواتُ وكالات الأنباء، وخلت الردهاتُ والمكاتبُ من هسهسةِ الورق وحفيف الفساتين النسائية.

صوتُ الفاختة البعيد يقطع السكونَ، يذرذرهُ مبحوحا بندائه الغامض، يرتفع وينخفض على أمواج الهواء..

يا جوختي.. وين أختي ..

مياهٌ تتغلغل بين البساتين، ظلالُ وعولٍ تهبط بين المرتفعات..

وين تنام ؟ بباب الله ..

على حافة أرض خضراء، حقولٍ ذهبية، على أطراف غابة.

قنواتُ المياه الفينيسية تعبرها الزوارق الخالية، يرتفع نشيدٌ كنائسي في أقصى السكون، يسيل متذبذباً في الهواء الناعم صوت المؤذن.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. فتطير الحماماتُ الرمادية الهاجعة في إفريز المنارة الزرقاء، تتناثر محلقةً فوق القرية الخالية. ضربات فرشاة باهتة في أقصى النها.

.. "دعنا نخرج من هذه الممرات التي لا تصلح لأجنحة النسور" ..

أذكر أنكَ قلتها وأنت تأخذ بيدي، وقلتَ ونحن نمر بالسكرتيرة المشغولة دائما بشد أطراف ثوبها حول فخذيها الرفيعين..

"يا لهذه اليواقيت الفاخرة على أسرة السماسرة والوسطاء.. ألا تعتقد أنهن يرتكبن خيانة ما بحقنا نحن الشعراء؟"

"نحن وعول أخيرة.. ربما وعول حضارات مفقودة.."

"ما الذي يفعله وعلٌ يحاصر من كل الجهات؟ إلا يلقي بنفسه من أعلى الصخرة الأخيرة؟ "
نغمةُ نداء الفاختة يكتبها كلّ شعب بلغته، وكذلك انتحار الوعول.. من يدري ما الذي تقوله الفاختة؟ ولماذا لا يكون ما نلمس في هذا الوجود هكذا: نغمة نداء بعيد يترجمه كل إنسان مثلما يحسّ ويرى؟ نغمة بلا أبجدية، كما هي المرأة وهذا النهار وذلك الشاطئ وتلك القطعان البرية من الوعول التي لا نهاية لعددها؟ نغمةً بلا أساتذة نحو وخريجي جامعات ستنمو على ياقاتهم الطحالب، بلا مكتبات سيتحول سكانها إلى رفوف ومناضد ومجلدات من تراب؟

الصالةُ الواسعة تشعرني بالارتياح دائما، إلا إن صوتَ مغنية الأوبرا يحسّسني بالضيق، كما لو أن ربطة عنقي تضغط.. وتضغط ، صوتَ امرأة ترتجف عارية تحت رذاذ ماء بارد، تقاوم ارتعاشها وتواصل غناءها الحاد الرفيع.
أشجارُ الكينا العالية لا تزال بأوراقها المرتجفة وجذوعها الملتوية تطل على زرقة شط ما ذات ظهيرة، زقزقاتُ العصافير الخفية في ظلمة السدرة تواصل النهار كما لو أنها انطبعت في الروح، خدشتها، رسمتها، وهذه الوعول..
"ربما كنتُ وعلا وقع على جسدها الشاسع البياض، الكامل الطفولة، تحت الغطاء الأبيض.. ربما كنتُ.. "
وانتبهَ أخيراً على صورته المتغيرة في مرآة غرفة نومها، رجلٌ في الثلاثين يحاول تناول الوجبات السريعة والكلمات المناسبة. رجلٌ يعجز عن التسمية، فيقول اللون والحجم والشكل كأنه يتذكر لغزا.
جين في مطبخها تعد وجبة الغداء:
"أنتَ تشبه أخي الذي انتحر.. كان يسخرمن الغناء الأوبرالي، فهل من المعقول أن يغني الإنسان وهو يموت..؟ عاطفية مضحكة .."
لا أذكر الأيام َحسب تواليها المعهود، فأنا أقول الثلاثاء فالاثنين، والخامسة فالرابعة.. هنالك فجوة دائما، شيء مفقود..
"الجنون هو ما نشتهر به نحن الإيرلنديين. يقال إن إيرلنديا يحمل قنبلة يدوية أفلت صاعقها، سألوه عن عدد رفاقه، فبدأ يعد على أصابعه، وحين وصل العدد خمسة، وضع القنبلة التي تكاد تنفجر بين ساقيه وواصل العد على أصابع يده الأخرى"
"لا بد أن أخاكِ كان حساسا وليس مجنونا.."
"ربما.. إلا أنني أحببته.. كان الوحيد الذي أحببت"

ألحُّ على ويندي، الليلكة الأسترالية الموحشة، أن تبقى زمناً أطول ما يمكن وسط ضجيج المحتفلين والراقصين والهامسين في الزوايا، كأن غيابها سيسحب خيوط هذا الاحتفال إلى الأبد، ويسحب من القلب نقوشه المرتسمة. يغلبني شعورٌ بالبكاء وهي تمسك بحقيبتها وتقف مترددة.. حائرة. شعورٌ بالفراغ المهدِّد بأن كل شيء سينتهي، وتضمحل هذه الالتماعة البراقة في العينين، وهذا الوجه الطفولي الداكن السمرة، وهذا الجسد العصيَّ على التدجين، ما أن تستدير وتذهب، ويظل لي هذا الضجيج، وجين وأصدقاؤها، والسيد ويست الثقيل، المتهدل الخدين، والجاحظ العينين:

"أريد رؤية هذا الذي جعل النجوم تلتمع في عينيك"

خضرةُ عينيها في آخر الليل كامدة، وجسدها يتراخى، وخيوطٌ حمراء تبرز فجأة على أطراف بياض عينيها.

"ماذا حدث؟"

"الحشيش .. يا صديقي .."

الحشيش فعلا، فهكذا ينطقونه بالإنجليزية أيضا. ولا أتأكد مما يحدث إلا حين تخرج العلبة، وهي تحدق بي بعينين محمرتين، وتبدأ بنثر سيجارة ولفها حول قطعة سمراء داكنة.

"النجوم؟ السيد ويست؟ ما جنسيته؟"

"بريطاني، أو قل لبناني.. خليجي.. كل شيء"

يراهنها على أنني لن أقبل دعوتها، أن أظهر أمام الناس معها، تقول هذا بعد أن رفضتُ في البداية.

"وها أنا من خسر الرهان"

تميلُ عليّ ويندي وتقبل خدي:

" يا صغيري.."

وتضيع بقية الكلمات، تضيع كلماتي، لا أجد لغة، شيئا تفهمه، كما يفهم الإنسان نبضة قلب أو رجفة شفتين، أو ظل غابة في الذاكرة. سمرتها القاتمة تجعلها نائية، من عالم تشتعل فيه الشموس، وتمتد مروج حتى نهاية الأفق. لمسة شفتيها خفيفة تذوب ما أن تستدير وتمضي. ويتصاعد الضجيج:

"أرجو أن لا تصدم إن رأيت أشياء لا تعجبك"

"مثل ماذا؟"

"شيء من الشذوذ"

"الأمر لا يعنيني"

"إذن لنذهب"

قالتها بمرح. فراغٌ ساكن وساكن..

" هل تعرفني بها؟ "

"آه.. نعم.. جين.. أمي"

تتوتر رقبتها، وتنتزع نفسها من المقعد، أبعد نظري وأواصل الجلوس بإصرار مثل حجر ثقيل لا يعي ما يدور حوله.

"في قفص الدجاج يظلّ النسرُ عاطلا عن العمل، غموضه وبطالته يحيران الدجاج. يتساءل دائما، يراقب تهاديه وكلماته المطبوعة ولا يفهم "
وفي نهاية المقال أبرّر هكذا..
" أجنحةُ النسور ضخمة عادة، معدة للطيران في الفضاء وليس للتهادي في الردهات الضيقة. مناقيرها مقوسة غير مهيأة لالتقاط الحبوب. أليس مؤسفا أن تشرب النسور العصير اليومي وتقشر أيامها كما تقشر بصلة؟ النسورُ العاطلة عن العمل ربما هي التي خلقت الحضارات حين كان يجيء زمنها، أما الآن فهي دجاج شاذ لا يصلح شيء.."
"مقالك غامض، ترى من سيفهمه؟ "
" أنا أفهمه وآخرون"
أعودُ إلى ورقتي تاركا جوابي معلقا في الهواء.
يحدث هذا قبل أيام قليلة من حادثة كاريكاتير ناجي الذي هز الصحيفة وصاحبها. بطين مترهل يشبه تمام الشبه حاكما عربيا يغرس عصا مظلة يرتسم على قماشها علم أمريكا بين فخذي إمرأة على شاطيء البحر. على خصر المرأة كتب ناجي عبارة Middle East. وتوقفتْ عندها الظهيراتُ الساكنة.
" الثورةُ يا صديقي وهم.. أسطورة.."
ولكن ويندي ليست أسطورة بالشموس التي تحملها، ولا ظلال الوعول التي توقفتْ واضمحلت كأنما في أفق برية شاسعة تاركة لي جبلا أفكر فيه، وطرقاتٍ متعرجة، ونيرانٍ تلتمع في الليل حيث يتقاسم الرفاق وجبتهم، وإلى جانبهم تلتمع الأسلحة.

لم أحب ويست حين انتحى بها جانبا وهو ينقل كأسه من يد إلى يد في أقصى الصالة..
"هل أنتَ شاذ جنسيا؟"
"لماذا تسألين؟"
"لأن ويست شاذ، والكثير من الرجال"
" ليس أنا "
.." الثورةُ وهم.. الثورة وهم.. الثورة وهم .."..
"ولكنهم يعذبون الأطفال"..
"لا تذكّرني.. الصغار يثيرون شفقتي"
في الصالة تنفتح جين مثل ياقوتة زرقاء. أرفعها إليّ وأحتضنها، تلتصق بي مندهشة:
" أوه.. كيف يحدث هذا سريعا؟ هل هو بالفكر أم بمجرد اللمس؟"
أغمغم وأنا أشعر بامتلاء نهديها وجسدها:
"لا تسأليني.. لا أدري"

سماءٌ من التركواز، أشجارُ كينا تمتد عميقا في مياه البحيرة، وعولٌ تتشمم الهواء، تنحني على الماء فيصدر لمعاتٍ متوهجة، وهجٌ في كل مكان، ظهيرةٌ ملتمعة، وأنا أركض من مكان إلى مكان ولا أصل، أتعثر ولا أصل، وهجٌ في كل مكان، فتقهقه وهي تنحني وتأخذ بيدي، أنهضُ متباطئا، أتلفتُ حولي حيث كانت الوعول والمياه والأشجار.

" لغتك الإنجليزية أزهرت فجأة، لغة جميلة، شيء غريب، طعم غريب تولجه في اللغة"

"ربما بفضلكِ.."

"هل تسمح إن أصلحت أخطاءكَ؟"

" أخطائي كثيرة، لم تكن اللغة أحدها، ولا النفور من هذه الخمرة القوية، ولا هذه البرية الشاسعة التي تسمينها وهما. أخطائي ربما هي أنني غادرتُ الغابة متوجسا منذ زمن طويل ولم أعد أعرف كيف أعود"

الشكاوى ترتفع، ويضجّ المبنى، يهتز، يكاد يتقوض، يتناثر، وتبرز بين الأنقاض آلاف الصفحات من صحيفة ممزقة، مقاعدُ جلدية يعلوها التراب، آلاتُ طباعة محطمة، صورٌ.. صورٌ.. ولعنات رئيس التحرير وهو يفتش بين الأكوام ويصرخ حانقا. يتطلع إلى السماء ليعرف مصدر الصوت الساخر ربما، صوت النسور المحلقة وهي تضحك وترمي إليه بالأوراق والأقلام، فتهبط بطيئة.. بطيئة أمام عينيه الذاهلتين.

الرمادُ يتساقط في ظهيرة معتمة مثل هذه على امتداد شاطئ ناء كان ذهبيا ذات يوم ثم برونزيا، وفجأة يتحول إلى حديد وصدأ. أكوامُ حجارة تعلوها الأعشاب وتغوص في وحل الشاطئ حتى حدود المياه، فتتلألأ صورتها. مدينة وهمية سكانها الأسماكُ والقواقع وزرقةُ الليلك الطافي، وهياكل السفن المنخورة. وفجأة تلوح سفينة أشباح من أعلى فنار مطفأ منذ مئات السنين، وأنا أركض من مكان إلى مكان ولا أصل، أتعثر ولا أصل، عتمة في كل مكان.

أقصّ رؤياي على ناجي فيبتسم بغموض ويعود إلى لوحته يطعنها بقلم مثلوم، أقص رؤياي على جين فتصرخ بفزع وتفتح عينيها سحابة خضراء من زجاج وسكون، أقص رؤياي على ويندي فتضحك وتضمحل على الجدار المقابل..

"لا تقصصْ رؤياكَ على أحد.. لا تقصص رؤياك.."

IV حجر الروح

ضع في أحاسيسي سلاما أبديا
ولن أطلب سوى هذه السماء الزرقاء

(خوان مارجال)

روما القديمة، أرضيةُ الحمامات المتآكلة، أشجارُ الزيتون والبندق، جدرانُ الغرف الموحشة، قوسُ النصر العالق على بضعة أحجار من الجانبين، طرقاتٌ وهمية في متاهةِ الركام المتناثر، أعمدةٌ خضّرتها الطحالبُ، وزوايا تتردد فيها الريحُ، الريحُ نفسها ربما، أو الأنفاس نفسها.. من يدري؟
في الشعرِ وحده تعود الأرواحُ إلى حقولها المنسية، يولد حجرُ الروح مائياً وشفافاً، تولد مرساةُ الروح. هكذا بدأ كلّ شيء في هذه الغابة الحجرية، من رافعةِ نهدين حمراءَ بلونِ العقيق وظهرٍ عارٍ وشعر ذهبي وفخذين موجتين، من ظلالٍ خضراء متناثرة وشمسٍ غاربة، ونسماتٍ تتردد بين الفينة والفينة، من أميرةٍ عارية على فراش مرتجل وضعناه على عجلٍ في الصالة، وأوقدنا إلى جانبهِ شمعة ضخمة لا تذكّر بشموع القديسين، بل بمشاعلَ خافقةٍ على امتداد شارع اللذائذ في بومبي، أو في زوايا حانةٍ اسكندرانية على ساحل البحر، أو في طريقٍ ملكي في سافانا كلما أحاط بها الليل.

أجمعَ العرافون على أن لعنة المرأةِ المفقودة التي اختطفها الغزاةُ قبل آلاف السنين، وضاعتْ بين القبائل البربرية، هي التي ستقيّد سافانا، وتحوّل سكانها إلى أمواجٍ متلاطمة، وستنمحي أسماؤها ومعابدها، وتسود صمتها المائي أحلامٌ خرساء. وستظهرُ بين الحين والآخر لتائهٍ في الصحراء، فيحدّث عنها مستمعين مذهولين تجمعوا في حانةٍ من حانات قرطاجنة المحترقة، أو بغداد المصابة بالطاعون، أو طليطلة المتحجرة، فيشدون إليها الرحال، ولن يجدوا سوى الصحراء.

زجاجةُ النبيذِ المائلةُ في سلةِ القشِّ ملقاةٌ على رملِ الشاطئ بيننا، وليندا تغني هامسة ووجها إلى البحر قصيدة هياواثا، عن آخر الهنود، وربما آخر البراري والغابات، وربما آخر الأيام الستة، قبل رحيلها بساعات.
أهتدي إليها بالأمواجِ وذهبِ الشمس الغاربة والإيقاع الهامس. أهتدي إليها بالخواتمِ الخزفية الزرقاء والحمراء التي أثقلتُ بها أصابعها، وعقودِ الخرز الملون التي أثقلتُ بها جيدها أمام الغجرية السمراء المتربعة على الأرض مع عقودها في ساحة بياتسا نافونا.
"هكذا كانوا يؤلهون المعبودات، بالأحجارالملونة ولهبِ المشاعل والعري في أعماق المعابد المقدسة"
تبتهج وتضحك وتضحك:
"ستظل طفلا يا صغيري.. تعال نقرأ طالعنا"
".. قرأته قبل آلاف السنوات، ألا تعرفين إنني كنت كاهنا في سافاثا ورأيت عربات الغزاة تحملكِ بعيدا حين كانت أحجارُ المعبد تنتحب واللهبُ يحيط بكل شيء؟"
".. أنا..!"
"..لا تقولي شيئا، كنتُ كاهنك الوحيد، وها أنا أعيدكِ إلى متاهتي، ها أنتِ تنبعثين بين الخرائب، حيث تنبعث الأميراتُ والأعشابُ وتتنهد الريح"
".. خيالي.. خيالي دائما.. دع هذه الغجرية تقرأ طالعنا.."
"إذن اسمعي..على شواطئ مهجورة تتساقط أزهارٌ كثيرة، عاشق متوحد في سفينة أشباح، عرافاتٌ يمحين اسمه عن صخرة، فتضيع روحه ولا تهتدي، أنتِ، أنتِ أميرة منفية في معبد دودونا أو طرقات بومبي أو هركلينوم المطمورة على ساحل البحر.."
تحدّق الغجريةُ متشككة صاغية، ثم تهزّ رأسها كأنما لتسقط عنه خاطرة عابرة:
"السيدة أولا.."
تبسط ليندا كفها وتميل برأسها الذهبي جانبا، تبتسم والغجرية تتفحص خطوط راحتها.

أهتدي إليها بهذه الزجاجةِ الخاوية المائلة على الرمل ونحن نبتعد عن البحر ذاهبين إلى ضجيج محطة القطار، أهتدي إليها بوجوهِ المسافرين وراء النوافذ، أهتدي إليها ببلادٍ غامضة تزداد غموضا كلما أوغل بي القطار العائد إلى روما في الأنفاق الجبلية، وأوغل بها القطار الذاهب شمالا بين البحيرات وغابات الصنوبر. تبتهجُ وهي تحرك أصابعها المثقلة بالخواتم الخزفية، يتطاير حولها الحمام في ساحة سان ماركو، تتطاير نسمات من شعرها وهي تواصل أغنيتها الهامسة: "وأنا سأهديكَ شيئا تتذكرني به إلى الأبد"

طليطلة تنحدر ليلا إلى الوادي العميق، تتحول البيوتُ والحاناتُ والأزقةُ والساحاتُ إلى عناقيدَ من النجوم غارقةٍ في سواد مبهم، وما أن يصل المسافرُ إلى القمة حتى يتلامح جسرها الحجري القديم. بياضٌ باهت فوق هاوية غارقة في العمق النائي. حجارةٌ بيضاء غضّنها الغبارُ وسقوط أمطار في أزمنة لا يذكرها أحد. الجسرُ نفسه تحول إلى جسورٍ مصغرة مصفوفة في محلات العاديات، لها شكل أوعيةٍ لرماد السجائر تدافعت على قوائمها من الجهات الأربع شخوص لملوكٍ ومحاربين وملكاتٍ وأطفال وفلاحين؛ تماثلٌ أصفر يميل إلى التراب.

الجريكو غادر بيته لمرشدةٍ سياحية قصيرة، لنظارتها الطبية وفستانها البيتي الذي يذكر بفستان طاهيةٍ عجول، وحشدٍ من القبعات والنظارات والكاميرات يتنقل وراءها في غرف ضيقة بين لوحات قليلة: سماءٌ مكفهرة شاسعة وراء قديس نحيل مضحك برقبته الطويلة ويديه الضارعتين ووجهه الغارق بالابتهال والدموع، خيولٌ زرقاء بأقدام شبحية في حقول حمراء تحت سماء سوداء يشقها برق فوق جبال نائية.

لا تلتمع في الباحة الصغيرة ونافورتها الحجرية الشاحبة إلا خضرةُ البوكنفيليا المتدلية من الشقوق بأزهارها الحمراء. الجريكو.. الجريكو.. تختلط الكلماتُ وهي تنطقها بجدية ولذة برذاذ يتطاير من شفتيها المكتنزتين. كلماتٌ عن حضارة عجنتها أجناس مختلفة، يهود، مسلمون، رومان، قوط. ألفتُ نظرها إلى أن خطوط الجريكو الملتوية سببها حولٌ في عينيه، فتتسع عيناها دهشة، تتوقف، ومن دون لحظة تأمل تنفي التهمة بعصبية، وتعود إلى عجينة حضارتها، تستأنف عجنها وتكويرها وتقليبها، وتنتقل بالحشد إلى زاوية أخرى.

لليلِ صوتُ وشوشةٍ وتمتمات متقطعة تتباعد كما تتباعد الأشياءُ وتنفصل، البيوتُ والساحات وطيورُ السنونو السوداء، وعناقيدُ النجوم، وحمامُ ساحة سان ماركو وهذا الفراغ الذي يرفّ حيث كنا أمام الغجرية، وأمام حدائق الحمراء، وهذه النسماتُ الرخية المحملة بالبرودة في صيف الحجارة الرومانية، وزوايا البار القليل الرواد؛ دخانٌ، رائحةُ نبيذ، عرق، وامرأة واسعة العينين يهتز نهداها كلما قدمت كأسا أو ضحكتْ وهي تصغي إلى عجوزٍ منحن على كأسه يسامر أشباحا.

لليلِ وشوشةٌ وظلالٌ تتتابع وراء نافذة القطار الموغل عميقا بين منحدرات وسهولٍ تغادرها أشعةُ الشمس شيئا فشيئا، تاركةً لنا الظلالَ وحدها، وهذه التلالَ التي تجمع أعضاءها من الأشجار والجداول والصخور وتهجع في الهزيع الأخير من الليل.

تتحدث الغجريةُ عن طرقاتٍ مغلقة مفقودة، عن شموعٍ شبيهة بالمشاعل تحف بإلاهة ملفوفة بلذتها على سريرٍ من السرو والريحان، عن سلم يصعده كاهنٌ مجهول ترتجف أعضاؤه، عن عزيفِ قياثر لامرئية وسلامٍ أبدي يهبط على كون يتخلق فيه النورُ وتنسرب الظلال.
أتطلع إلى ليندا المنتشية وهي تغمض عينيها وتبتسم باستسلام صباح لا تقاطعه رغبة، أو تتساقط فيه أصوات النهار، أو ضجيج القطارات..
".. سأهديك شيئا تتذكرني به إلى الأبد"
صباح الأحد، على مقعد الصالة الطويل، جمعتْ حول ثدييها وفخذيها الذهبيين أطراف ثوبها الأرجواني، وأحنت رأسها في صمتٍ مفاجئ ..
"لا تعتذر.. كلماتكَ دقيقة.. وتعني أنكَ لا ترغب.."
"بلى.. ولكن الخطأ في اللهجة ربما"
".. أتعرف لماذا رفضتُ دعوة الذهاب إلى البحر؟ ليس لأن رماله سوداء، بل لأنني أحببتُ أن يكون لنا صباح الأحد كله لا يشاركنا فيه لا البحر ولا السماء"
تفتحُ حقيبة ملابسها، وتلتقط شيئا تدسه في حقيبتي، وترفع إصبعها محذرة..
" لا تفتحها قبل أن أسافر"
رائحة الأنثى ربما، غيابها، هو ما تتشممه الغجريةُ في هواء الساحة وعلى راحتي المبسوطة بين يديها. تتنهد، فأقول ساخرا:
"كلنا نجيد الحديث عن الماضي، نخلقه ونعجنه على إيقاع الحاضر"
تزم الغجرية شفتيها، وتحدق وتحدق، بينما تطوقني ليندا وتسند خدها إلى خدي وعيناها معلقتان بشفتي الغجرية. لا تقول شيئا، عيناها السوداوان الوحشيتان دخان أسود، تهز رأسها مثل وعل اشتبكت قرونه الشجرية بأغصان كثيفة وجافة في غابة لا منفذ منها..
"أنتَ.."
وتضحك الغجرية.

أفتحُ الحقيبة وأبحث بين ملابسي عن ذلك الشيء الخفي الذي دسته محذرةً، عن ذلك الأبدي الذي ستتوهج الذاكرة وتظل تتوهج كلما قلبته بين يدي: رافعة نهدين حمراء، رائحة الأنثى، ظهيرة روما،

وقوس النصر المتآكل، ودعوتي المرحة إلى خلق الكون. دعابة ربما، أو شيء أعمق، لغز، ربما إذا توصلت إلى نهايته سأجد نفسي أمام سافاثا مرة أخرى حيث يصطاد الصيادُ بشبكته أسماكا ملونة، تدهشه المعجزة فيأتيني بها مذهولا إلى باحةِ المعبد بين أشجار السدر والنخيل. ويعود الطباخ مذهولا ..

"احترقتْ.. احترقتْ كلها"..

ويجيء الصيادُ مرة أخرى بأسماكه الملونة، وتحترق كلها.. تحترق ما أن يضعها الطباخ على النار.

"خذنا أيها الصياد إلى هذا البحر العجيب المتلاطم الأمواج.. خذنا أيها الصياد إلى حيث تصطاد" ويذهل الصياد أمام البرية الشاسعة التي تحول إليها البحر، هذا المدى المترامي الذي ابتلع فجأة كل شيء.

٧ حديقة العاشق

أخّذتُ فاكِ ذا الرقة،
أخّذت عينيكِ السوداوين،
أخذت حرّكِ ذا الثنية
(من تعويذة أكدية)

لا يُعرف حتى الان ما إذا كانت سافاثا مدينة نهرية أم مدينة صحراوية، موطنَ أمة واحدة أم موطن أمم متعددة، لا يُعرف هل تحدّث سكانها بلغةٍ واحدة أم تعددت بينهم اللهجاتُ واللغات. شيءٌ واحد معروف، هو أن شظايا ألواحها الحجرية المكتشفة بين أنقاضها لا تحمل نقوشها أبجدية من أي نوع كان، بل تحمل صورَ كائناتٍ، بعضها مما نعرف ونألف، وبعضها مما لم تقع عليه عينٌ ولا وعته ذاكرةٌ ولاصادفه مسافرٌ أو تخيله فنان. صورٌ منقوشة بأزاميلَ حادة، ملونة في أحيان كثيرة بألوان نباتية أو معدنية مصدرها مجهول. حكاياتُ أناس تحدث ما أن تظهر الشظية أمام أعيننا، وتختفي حالما نبعد أنظارنا. أزمنةٌ تحولت إلى أمكنة. صورٌ في فراغ مأهول، نصفُ معنى أو لا معنى إطلاقا، أحداثٌ محتملة أكثر مما هي أحداث مكتملة.
كلُّ هذا بفضل غياب الأبجدية؛ مولودة الزمن، وشاغلةُ الفراغ حتى الحافة في كل بيت تقيمه، خالقة الوهم بالحدوث والفوات والغياب. الصورةُ مشاعرٌ تتورق، خطوطُ إزميل أو ضربات فرشاة، أو ثلم ٌ في جدار الأيام، تحدث دائما، الآن، وفي كل آن.

يدور الأمرُ حول نقوشِ لوحٍ حجري مكتشف بين أنقاض معبدِ سافاثا الكبير، معبدٌ يقع شمالا بين بساتين النخيل، على حافة الصحراء، يقال أنها أُخذةٌ أو تميمة علقها عرّافٌ ليسجن أو يقيد أو يخلّد روحَ امرأة محبوبة. أو يقال أنها تأبيدٌ لحدثٍ تم أو يحدث الآن في فردوس غامض، أطلق عليه بعض من تأمل النقوشَ اسم فردوس الجسد، بدليلِ الحضورالعميق لشخصين متعانقين بين أشجار آسٍ ورمان. أو يقال أن النقوشَ ترميزٌ لزواج سماوي بين الكائنات، بما فيها من نبات وحيوان، كانت الشعوبُ القديمة تعتقد أنه يحدث حين يكتشف الرجلُ المرأةَ فيعرفها وتعرفه، بدليلِ كثرة الطيور المحلقة والأغصان المتشابكة، والكواكب التي بدت مثل أنهار من الرمال. إلا أن هذه التأويلات رغم جمالها تحوّل السرَّ إلى معرفةٍ فتفصلنا عن رجفته الأولى. إنها تستخدم الزمنَ دائما؛ حدثَ هذا الأمر أو ذاك، لتصل إلى معنى ربما لم يكن موجودا أو ربما لن يكون له وجود. تقليدٌ حديث تمارسه ثقافةٌ شغوفة بالساعات الرملية والمزاول، ثقافةٌ لا تدرك أن هناك ليلا دائما لا فواتَ فيه؛ ليلَ الروح بشمسه القاتمة.

اللوحُ أو ما تبقى منه لم يكن إلا شظايا. ربما كان هكذا في الأصل.. من يدري؟ لا أحدَ يهتدي إلى صورته الأصلية إلا تخيلا، فيمنحه الخيالُ آلافَ الصور المحتملة. ويظلّ ترتيب الشظايا بحيث تكون نصاً ذا معنى أو نصف معنى محالا.
هنا بخورُ مرّ يتصاعد، قواريرُ طيب وعطور، شفاهٌ، كرمٌ أو بقايا كرم، عينان، فخذان لامرأة عارية.. هنا شجرةُ أرز، قوائمُ سرير خشبي، وهناك يواقيتٌ زرقاء تحلي يدا طويلة الأصابع ونهدين قاتمين.
النقوشُ نفسها ليست أصوات لغةٍ يكون فيها الماضي والحاضرُ والمستقبل، ليست ألفاظا تروي أخبارا، أنها أوعيةٌ من طين أحمر أو فخار أو مرمرٍ معرّق نحدق في فراغها، في هذا الفراغ وحده الذي تحيط به وتمسكه، الفراغ الذي صُنعت من أجله.
وليست هذه هي الصعوبة الوحيدة، فالنقوشُ رغم أنها محفورة بالأزاميل لا تماثل النقوش المسمارية، ورغم أنها تعرض صوراً إلا إنها ليست هيروغليفية، إنها أحداث ممتعة بذاتها لا تكشف عن غير ذاتها، لا تمنح فكرةً بل إحساسا قويا بالوجود. إنها فن صاف تعود فيه القصيدةُ إلى بياضها والوردةُ إلى عرائها والمرأةُ إلى موجتها التي كانت عليها.

ربما كانت هذه النقوشُ أقدمَ بكثير من فجر المنطق الإنساني الذي بدأ يُسمّي ويصنّف تحت شمس نهاره المرتفعة، متهما الليلَ بأنه نهار غامض، أو عالمٌ غابت شمسه إلى حين. فالكائناتُ التي تظهر فيها لا يبدو أنها عاشت في مكان محدد، أو زمن معروف، لا يبدو أنها اتخذت لها أسماء، أو اعتنت بأن تكون لها أسماء. كذلك يمكن القول عن الأشجار والكواكب والمقاعد، أو ما يبدو هكذا أمام أنظارنا.
الأكثر وضوحاً نقوشُ شظيةٍ مميزة بين بقايا ما نفترض أنه كان لوحاً: جسدُ امرأة إلهية عارية، يجللها شعرٌ حالك السواد، تحتضن جسداً يبدو جسدَ رجل نحيل يحمل ملامحَ عرافٍ أو كاهن أو قارع طبول في معبد. وتحيط بهما عتمةُ حديقة يلتمع فيها بياضُ الياسمين وضبابُ أزهارالرمان الحمراء. معبودة وعابد؟ ربما. اثنان من الآلهة؟ ربما.
لا أحدَ يعرف ما يحدث بين الاثنين، وأي همسة مبحوحة ترددت، أو ارتجافة سرت، في اللحظة التي ارتسم فيها المشهد. تهمسُ المرأةُ..
"سأجعلكَ كاهني الوحيد.. متاهتي الوحيدة"..
يهمس الرجل..
" أخّذتُ فاك ذا الرقة، أخّذتُ نهديك العاريين.."
لا أحدَ يعرف إلا تأويلا، لأن الشظايا الأخرى تحمل صوراً مختلفة، كؤوساً فارغة على حافة طاولة صغيرة، مقعدين صغيرين، والكثير الكثير من الطيور، الطيور المحلقة، مرة في الجزء الأعلى من هذه الشظية، ومرة في الجزء الأدنى منها، كأن من نقشها رأى السماءَ في كل زاوية من زوايا المشهد أو حدس بوجودها.

تأويلٌ أول: حين نقتربُ أكثر ونركز نظرنا نلمحُ على شفتي المرأة ابتسامةً مطمئنة يلمسها ضوءٌ قاتم، ابتسامة نشوة ولذة، ونلمح جفنين مسبلين، وكأنها همستْ لتوها بشيء ما ارتجف له جسد العراف واضطرب، فتمتم بكلماتٍ أصابها الصمتُ وهو يدير وجهه جانبا.
الطيورُ تبعث البهجة، فهي منتشرة فوقهما وتحتهما، ويحتمل أن طاولة الكؤوس كانت قريبة منهما حين نهض العراف عند اقتراب الفجر، ففتحت المرأة ذراعيها وطوقت رقبته وضمته إلى صدرها. ويحتمل أنهما كانا قريبين من شجرتي الآس والرمان، ولابد أن تكون الزهرتان الواضحتان جزءا من شجيرة رمان مزهرة ذات ظل أخضر، وكذلك أوراقُ الاس الذي كان يزرع بكثرة في العصور القديمة. لحظة بهجة ربما.. مفاجئة.

تأويلٌ ثان: حين نحدّق في جسد العراف أكثر، أو نلمسه ونمر بأصابعنا على خطوطه الحادة، نكتشف فجأةً أنه جسد متحجر، تمثالٌ في حقيقة الأمر وليس جسدا حيا، وأن من نقشه ود بإلحاح إيصال هذه الرؤيا، فأعضاؤه ذاهلة فيها من الحجر سكونه، ومن الرغبة قلقها، وليس كذلك المرأة الإلهية التي تضجّ بالحيوية والطمأنينة وهي تشد إليها جسدَ الرجل. هل كانت تعانق تمثالا؟ أم أنها عانقت جسداً حيا فتحول إلى حجرٍ في اللحظة التي همّتْ به وهمَّ بها؟

تأويلٌ ثالث: في العتمةِ الواضحة، العتمة التي لا نعرف هل كانتْ في الأصل أم هبطتْ على النقشِ بسبب آلاف الليالي التي مرت على المشهد، نلمح طرفاً حلميا في الصورة كلها، حلماً يهيمن على الكائنات. من الذي كان يحلم بالآخر؟ هل المرأةُ هي حلم الرجل أم أن الرجلَ حلم المرأة؟ أم أن الحديقة، أو ما يبدو كذلك، حلمٌ مشترك على حافة الفجر قبل أن تبزغ الكائنات؟
في روايات سافاثا المتداولة شفاهةً أن عاشقا آراميا حاول في أحد أحلامه معانقة المرأة المحبوبة، عرّافة المعبد الممتلئة التي لم يكن يبصر منها سوى هالة الشعر الأسود وهي تجلس بثوبها الأخضر الطويل وسط دخان المجامر، ولم يكن يسمع منها سوى وسوسةِ الحلي حين تغادر إلى غرفتها المطلة على البحر في أواخر الليل، ولم يكن يشم منها إلا رائحة المرّ واللبان حين تتهيأ للاستحمام في حوضها المرمري الأزرق، وفي الصباح صحا من حلمه ليجد أنه تحوّل إلى حجر.

وفي رواية أخرى أن عرافاً تنبأ له منذ الطفولة، بأن روحه مقيدة في تميمةٍ وضعتها امرأةٌ في ثنايا شعرها الأسود الطويل، وأنه سيظل تائها إلى أن يجد المرأة، في فرجة بين أشجار غابة، أو في أعماق معبد مجهول. التميمةُ تقيده وتجذبه إليها، وتسحبه سواء أكان في سريره أم في حديقته أم على شاطئ البحر أم في عتمة بارٍ في مدينة تتعدد لغات أهلها، أم كان بين أحضان امرأة أخرى، أم اختفى في شعاب روايةٍ يحكيها لمستمعين في زاوية من زوايا مسجد يظلل باحته النخيل.
وفي روايةٍ أخرى، أن العرافة، وهي ترقد عاريةً في سريرها أو حديقتها المحاطة بالمشاعل الخافتة، راودها حلم العاشق عن نفسها، فتقلبتْ في سريرها منتشية قبل أن تنتبه إلى صوت البحر وهبوب يشبه هبوب الجسد، فتفزع إلى نفسها، وتنكمش وهي تشعر بجسد يطوقها، وشفتين تلمسان شفتيها، وتطلق لعنتها على هذا المجهول الذي لم تكن تسمع منه سوى ما نسمعه من أمواج البحر وعزيف أوراق الشجر، فتبعده بيديها مرتجفة بين الحلم واليقظة.

أعودُ إلى الشظايا، وأتخيلُ صورةً للوح أصلية، أو حكاية: هذه هي حديقة التحولات، حيث يعترش الآسُ والياسمين، ويتناثر زهرُ الرمان في ضباب الفجر الخفيف، ويترقرق صوتُ النبع، وتسكن الأيائل صاغيةً، وتتمايل الأعشابُ، وتتملك الجسدين ذاكرةُ نجم وارتعاشةُ نهر يتدفق، وحفيفُ أوراق تتساقط في وقت واحد معا. هذه هي حديقة الشهوة، حيث يهرع "آسافُ" و "نائلة" أحدهما إلى الآخر، فيتحولان إلى تمثالين حجريين، تحوله يسبق تحولها لأن لمستها تسبق لمسته، ويتحجّرُ ما أن يعرفها وتتحجّرُ ما أن تعرفه، وتنقلهما قافلةٌ عابرة إلى واجهة معبد مقدس في واد حفرته سيول قديمة، حيث تقدم لهما القبائلُ الهمجية ذبائحها ونذورها. هذه هي حديقةُ العاشق الذي يتحول إلى حجرٍ حين يغلبه الألم، والحجر الذي يتحول إلى عاشقٍ حين تغلبه البهجة.

الطيورُ ربما كانت نساءً في الماضي، وكذلك الأشجارُ والندى، هكذا تقول روايات سافاثا. فنجد كاهنةً تحاول أن تستيقظ ذات صباح وتنظر إلى جسدها فتتحول إلى سدرةٍ تزحمها العصافير، ونجد امرأةً أجنبية تحاول التقاطَ شعاع هارب على المرتفعات، فتتحول إلى شجرةِ بوكنفيليا مثقلة بأزهارها الحمراء. ونجد صاحبة حانةٍ ساخرة تحاول الاهتداء بالموج، فتتحول إلى معبدِ لذائذ في مدينة مطلة على البحر، ونجد مغنيةً تحاول أن تتناسق مثل سيمفونية هائلة فتتحول إلى ندى يتساقط في أماكن متباعدة.

الطيورُ ربما كانت نساءً في الماضي، لهذا تكثر صورُ الطيور في كل مكان على شظايا اللوح الآرامي، تحت الماء وفوق التراب وبين الغيوم والأشجار، حتى فوق المرأة الإلهية والعراف المرتجف، وهو ما انتبهتُ إليه أخيرا. هنالك طيورٌ بيضاء تحلق عاليا تجعلني أفكر بالابتسامة المطمئنةِ على شفتي المرأة المضاءة بنورٍ قاتم.

VI ميناء الأشباح

سترى كم هي جميلة الغابة القلقة
في أرق ليالي يونيو

(د.ل. ميلوش)

أنا ناج من قبيلة مفقودة، الناجي الوحيدُ ربما، لأن لغتي لم يعد يفهمها أحد، وحقيبتي ممتلئة بأشياء لم يعد يتذكرها أحد، ولأنني، وهو الأكثر أهمية، أنادمُ أناساً وهميين من عصور غابرة، أدعوهم إلى مائدتي، أو يدعونني إلى منازلهم. وما أن ترتفع شمسُ النهار حتى تختفي الموائدُ والمنازلُ، ولا تظهر علامةٌ تقودني إليهم أو تقودهم إلي.
انتظرُ الليلَ لأتخذ طريقي إلى هذا البار الذي تسكنه رائحةُ البحر، وتغني فيه امرأةٌ آسيوية لصوتها رنينٌ ولعينيها نشوةُ غابة تحت ضياء القمر، وتحتضن فيه غجريةٌ كأسها كأنما تحتضن أيامها الأخيرة على هذه الأرض إلى أن ينسرب شيء من روحها، فتندفع بعنفٍ وتنشب أظافرها في صدر صاحب البار العجوز.
أنتظرُ الليلَ لأرى عابرين يلصقون وجوههم بزجاج نوافذهِ، ويتركون وسماً من ضباب قبل أن يغيبوا، لأرى رجالا ونساءً قلقين يتوافدون في منتصف الليل كأن سفينة أشباح تركتهم على الشاطئ فجأة فانسربوا في أي مكان يلمحون فيه نافذة مضاءة، أو يسمعون فيه نغمة ماندولين متوحد، أو يرتفع فيه غناءٌ عن الأيام الخالية.
هنا التقيتُ بالمرأة التي نسيتْ أسماءها العديدة، أو تناستها، إن كان عليّ أن أحكم من طريقة استخدامها للأفعال. إنها تتحدث عما يحدث دائما، ولا تشير إلى ما حدث أبدا مهما كان نوع الحديث. لكلماتها أقمارٌ لامعة ونسيمٌ يهبّ من أماكن لم يسكنها أحد بعد. ربما لهذا السبب تمنحها اللغةُ مظهرَ امرأة بلا ماض ولا طرقات ولا منازل تعود إليها. تتقدم دائما وهي تجيل عينيها في وجوه الساهرين، أو تجلس مثل غابة ضاحكة، وتلقي بيديها على المائدة أمامي، تتلمس يدي وهي تنظر في عيني، وتطلب مني أن أروي حكاياتي أو حكاياتها أو أي حدث لا تتذكره.

على رصيفِ الميناء يتجول غرباءُ فقدوا سفائنهم، ومنحهم القلقُ والشرودُ مظهرَ نوارسٍ أثقلها الليل، فلم تعد تستطيع التحليقَ أو الصياحَ في حضرة البحر القاتم، البحر الذي ينام الآن بلا فجر قريب. وفي الأزقةِ الداخلية، حيث يتكاثف شجرُ الكافور ويملأ الحدائق البيتية الصغيرة، ويُسمع خلف العتمة رنينُ الأقداح وموسيقى عازفين لامرئيين، تتحدث أشباحٌ عن مدائن بحرية لا يراها إلا الغرقى والقواقع والأسماك، وعن نساءٍ هيبيات ٍ جئن من بلاد مجهولة، تطفو أجسادهن العارية فوق الأمواج والزبد المضاء تحت قمر لامع في الهزيع الأخير من الليل.
إذا ابتعدتَ قليلا، وخلفت وراءك الميناءَ والبيوتَ الحجرية باتجاه التلال الصخرية وغابات الزيتون والتين، وأوغلتَ في الخضرة وحدها، والهواءَ وحده، ستكتشف نيراناً متفرقة أمام الكهوف، وهديرَ

غناءٍ وحشي يتصاعد من كهفٍ واسع تخالطه أصواتُ دمدمةٍ وعواءٍ وصراخ وعولٍ لا تلبث أن تهدأ.. شيئا فشيئا، ويتحولُ الكونُ إلى تنفسٍ هادئ ونشيجٍ يُسمع بين آونة وأخرى.

في زمنٍ لا أتذكره كان لقاؤنا الأول. ولأنها لا تصدّق ما لا تتذكر، تندفعُ إليّ مثل سفينة خرجتْ إلى البحر الواسع من موانئ مفقودة، أو تتظاهر بعدم التصديق، فترتسم على جبينها وعلى سواد عينيها العميقتين وعلى شفتيها الممتلئتين، حيرةُ طفلةٍ اختطفها قراصنةٌ أو تجارُ رقيق وباعوها في عواصم أجنبية.

لا تتذكر لقاءنا في مدينةِ العقود العباسية وعصافير الدوري، ولا شجيرةَ الدفلى عند بوابة شقتها ذات صيف، ولا مرسى القوارب حين احتضنتني والتمعتْ وراءها مياهُ القناة الكبرى بأضواء القصور الفينيسية. إنها لا تتذكر حديقة العاشق حيث تصل الشهوةُ حدّ جنون الحجر وتتبادل الكائنات أحلامها، ولا الطائرَ الذي سقط في أحضانها وهي تجلس وحيدةً تحت مسقط الضوء في مقهى، ولا أول ضربات أصابعها على مفاتيح البيانو حين تموّجتْ ودومتْ أصواتٌ أحاطت بكل شيء، وظلتْ تتساقط في أماكن نائية.

أحياناً يذكّرني وجهها بوجهِ قديسةٍ في أيقونة روسية مذهبة انطفأت أمامها الشموع منذ زمن طويل، وأحيانا بوجهِ إلاهة أرمنية نحت تمثالها عراةٌ في ضوء مشاعلَ ملتهبة.

حين يتوقف الغناءُ، ترفع المغنيةُ يديها وتعلق صوتها مثل خيط رنانٍ في فضاء البار إلى أمد طويل، وتعود العيون إلى كؤوسها أو تحدّق في ظلام المرسى وراء النوافذ، وتعود الغجريةُ التي تفقد روحها أحيانا إلى مائدتها باحثة بعيونها عن شيء ما، عن بقيةِ نهار أو بقية ليل.

وتبتسم المرأةُ مشفقة علي من خواء ذاكرةٍ باتساع البحر. تقول أنني أتلبس ذاكرتها عبثا، فهي بلا ذاكرة، وأنتمي إلى ليلها عبثا، فهي بلا ليل، وأتجول في بساتينها عبثا، فهي بلا بساتين..

"ربما كنتُ وهماً.. "

وتسحب يديها بلطف ويصيبها شرودٌ مفاجئ..

".. حتى أنني لم ألمس يديكَ، لم ألتق بكَ، ولا كان شيءٌ مما يحيط بنا. هذا البار وهذه الوجوه والأصوات فراغٌ تصنعه الكلمات، منازلُ نلجأ إلى فراغها إن أحببنا، أنا تأويل من آلاف التآويل الممكنة، مثلما أنتَ متوحدٌ من آلاف المتوحدين"

في الأيام الأخيرة تحدثتْ عن نهرٍ غامض يوقظها هدوؤه، وبريةٍ شاسعة تجمع فيها نوّاراً من كل الألوان، بريةٍ لا تتوقف عن الامتداد كلما أوغلتْ فيها. وأخيراً تحدثتْ عن ميناء محدد تزحمه سفائنُ تجيء من أمكنة بعيدة، ويهبط منها تجارٌ وشعراءُ وفنانون ومتشردون، إلا أنها لا تهبط، وتظل تتطلع من نافذة غرفتها الضيقة إلى الميناء، سجينة مقيدة في سفينة غامضة حمولتها الخمرُ والطيوب والعبيد والهيبيين.
أتوقفُ عند هذا المشهد، أحاول تأويله بتفاصيلَ صغيرة، بأسماءِ المدن وألوان جلود البحارة والزمن الذي يحدث فيه، وأنواع الأشجار، ولون غيوم ذلك الصباح، والأزهار التي كان يهب أريجها على امتداد رصيف الميناء آنذاك، فتتغير ملامحها مثل صفحةِ بحيرة غادرتها أشعة الشمس الغاربة، تخلو عيناها من الظلال، تنسحب ابتسامتها، وتتشاغل بالنظر إلى أظافر يديها كأنها لا تراها، وتبدأ بالتلاشي شيئا فشيئا كلما أوغلتُ في التفاصيل.

حين يحدث الفجرُ فجأة، وتتراءى ظلالُ المغادرين وراء النوافذ الزجاجية، وتصحو الغجريةُ الغافية على مائدتها وترفع رأسها ذاهلة، وتدندن المغنيةُ وهي تسحب ثوبها الطويل وتغيب في عتمة الشارع الشفافة، يلم بالمرأةِ خدرٌ لذيذ يسري في أطرافها، ويتثاقل عند شفتيها، ويغمر خديها وينسرب إلى ظلال عينيها، فتحدّق في عينيّ وتنهض وعيناها لا تغادران عيني، وقبل أن أدرك ما سيحدث، تطوقني بذراعيها وتشدني إلى صدرها، كأنها تعتذرعن أسمائها المنسية وعن الموانئ المفقودة التي غادرتها.

حدث هذا منذ زمن بعيد، أو لم يحدث في الحقيقة، ولا زلتُ أنتظر حدوثه كلما اقترب الليل، واتخذتُ طريقي إلى البار الذي تسكنه رائحةُ البحر، أنا الناجي الوحيد من قبيلة مفقودة، ربما كانت قبيلةً من القواقع أو النوارس أو عصافير الدوري أو أزهار النرجس التي أغرقتها وحول الشتاء، ربما كانت قبيلة من رمال لا يتذكرها أحد.
لم تعد المرأةُ تتحدثْ، لم تعد تلقي بيديها ضاحكة وتتلمس يدي، لم تعد تنظر إليّ أو تسألني حتى حين توقفتُ عن رواية الحكايات، لم تعد تضئ وجهها شمعةٌ من أي نوع كان، وجهها الذهبيٌ يزداد

نأيا في أعماق الأيقونة الروسية كلما أوغلتُ في التفاصيل، تزداد نأيا في أعماق معبدٍ مجهول، تتحول إلى غابةٍ متوحدة كلما اقتربتُ من حافةِ مينائها المفقود.

VII الثلج

يا لحزن الطائر الأبيض،
لا زرقة السماء
ولا زرقة البحر
تخففان من بياضه

(بوكو سوي)

في الليلِ يتساقط الثلجُ على أمكنةٍ عديدة. ربما يتساقط الآن على علّيةِ بيتٍ في شارع كاستريشي، حيث ترقد امرأةٌ على ظهرها ويميل عليها رجلٌ يغطيها بعباءته الأرجوانية، يغطي شفتيها بشفتيه، يحتضنها، يتحجّران معا لمئات السنين القادمة. قبلةٌ نهمة قاطعت الغبارَ الكونيّ الهائل الذي هبط على مدينة بومبي الرومانية قبل ألفي عام.

ربما يتساقط الآن على حديقة يوسانو آكيكو ذات الشعر الفوضوي، فتتمتم وهي تأخذ نهديها بيديها: "ما جدوى الكلام عن الخلود الذي لا نراه؟ الربيع قصير.. قصير وعابر"

ربما يتساقط الآن على شظايا ألواحٍ حجرية في معبد سافاثا الراقد في العتمة الأرضية، حيث لا تزال امرأةٌ إلهيةٌ مرتسمة على حافة شظية تحتضن عاشقاً متحجّراً وحولهما أشجارُ الآس والياسمين.

ربما يتساقط الآن على بلاطِ الشارع المعتم أمام شقة يانتشيف الستيني بشعره الأبيض المسترسل، وقامته الطويلة، وراء زجاج نوافذه الوردي، على أشجار الكستناء المبتلة، على مظلات العابرين ومداخل البنايات المعتمة وحدائقها التي بدأت تتحول إلى بياض صامت.

ربما يتساقط الآن على خزاناتِ الجوز الثمينة، فترتجف أعضاءُ النساء لذةً ورغبة، ويواصلن أحلامهن البيتية: بتلات أزهار حمراء تتساقط في ليل طويل.

المصباحُ السحريُّ يعدّ وجبته مثل مايسترو يرهف أذنيه وعينيه وأصابعه حتى لا تفاجئه نكهةٌ غريبة، أو تفسد متعته ملعقةٌ ليست في محلها. لا ضوءَ في هذا الكهف الليليّ سوى ما تنفثه المدفأةُ الحجريةُ الصغيرة، لا صوتَ سوى هدير الطائرات المغادرة، ولا رائحةَ سوى رائحة الأسماكِ النهرية والنخيل المبتلّ حتى جذوره على بعد آلاف الأميال:

".. لا تنسَ أن تقول شيئا عني في روايتكَ.. تلك التفاصيل الصغيرة التي مررنا بها ولم نمنحها اهتماما.. أكثر ما يشغلني.."

صوته يحمل ارتجافته القديمة، ارتجاجَ وتقطع الحروف ..

".. أشياءَ، ملامحَ إنسانية لبشر وأصدقاء ضاعوا في الماضي ولم نكتب ملامحهم، منعطفاتٍ، طرقاً في شتاءات وأصياف.. إليكَ هذه الكأس.. اقترب قليلا.. تذوق طعم الراكية بعد أن عالجتها بالتثليج الطويل.. علينا أن نحترم هذا المساء حتى ولو كنا في غابة بدائية تتنادمنا فيها الذئاب والسناجب"

أتناول كأسي متشاغلا بالنظر إلى الليلِ حيث ينهمر نثيثُ الثلج في سكونٍ مطلقٍ وراء النوافذ والأبواب، متظاهراً بالإصغاء لصوت الطائرات المغادرة.. مفكراً برهافة المايسترو العابثة..
"السناجبُ كائناتٌ لطيفة تشبه الأطفال، لا شك أنها تختبئ الآن في تجاويف أشجارٍ عملاقة في هذه الليلة الثلجية.."

أتخيّلُ خيري في أحد تحولاته دبّاً قطبيا في البياض، لا تظهر منه، وهو يتحرك عند نهاية الأفق، سوى آثار الأقدام السوداء المتقطعة على بياض الثلج الناصع.
أتخيّل غالبَ شجيرةَ سيسبان رقيقة، ربما لأنه اكتشف وجودها بين الشجيرات المتكاثفة على جانب الطريق، فقطع ساقها الأخضر وجرّده من الأوراق الصغيرة وبدأ يمضغه متلذذاً.
أتخيّل ناجي نورساً مكتهلا غادر وطنه طفلا أيضا مثل هذه النوارس اللاجئة إلى صخرةٍ رمادية عالية تطل على بحر عاصف.
أتخيّل جيفارا مع كل ما تبقى، سبعة عشر رجلا، وهم يتحولون إلى أشجار حورٍ سامقة في العتمة تحت ضوء قمر وحيد شاحب.
أتخيّل جين شجرةَ بوكنفيليا هائلة تتمايل أغصانها فوق حافة صخرية ناتئة، وتلتمع أزهارها الحمراء تحت ضوء شمس غاربة.
أتخيّل ليندا أمواجاً ذهبية تندفع مع حطام سفنٍ كنعانية إلى شاطئ أزرقَ تحت سماء صافية الخضرة.
أتخيّل المرأةَ الكاهنة بشعرها الأسود الطويل تتحول إلى سدرةِ بيتٍ تزحمها العصافيرُ مع أول خيطٍ من خيوط الصباح.
أتخيّل نفسي حجراً، ربما لأن الحجر أكثر نأيا وصمتا وتوحّدا.

تبتسم المرأةُ الجالسةُ تحت مسقط الضوء، تقاطعني كأنها تشعرُ بوجودي..
".. أتحبُّ الصمتَ إلى هذه الدرجة؟ إلى درجة أن لا ترى إلا صوراً؟ "
فأقول في هذا الحلم المتكرر..
".. نحن لسنا كلاماً، الكلامُ أوعيةٌ، جدرانٌ تحيط بالفراغ الموحي.. الفراغُ كان في البدء، كانت الصورة، حالةُ البراءة المطلقة، فأحبكِ بآلاف المعاني والليالي والأزمنة واللغات، رائعٌ أن نكون كلَّ هذه الممكنات.. من أنتِ في الحقيقة؟ لا أدري"
ربما لأن الحجرَ هو المتاهةُ التي تفلتُ من الزمن، الرغبةُ التي لا ينفذ إليها، فيدور حولها، ويدور بلا بداية ولا نهاية. ربما لأن الزمن يفقد رؤيتنا في هذه المتاهة، نختفي تحت كل الأسماء التي نحبّ بمنأى عن الخطوطِ المستقيمة، وهذا المسار الذي نجري فيه مكشوفين وواضحين حتى البوابة

الأخيرة. شجيرةُ الدفلى هي ما يلفت انتباهي لا هذه البوابة الصامتة. في المتاهةِ يظلّ الأطفالُ أطفالا.
تهزُّ المرأةُ رأسها، وتبعد عينيها باتجاه السكون المحيط بنا، تضع الطائرَ الحجريَّ جانبا، وتنهض فجأة كأنها سمعتْ صوتي أو حلمي، تتلفتُ حولها مثل طريدة تشعر أن الكون كمائنَ والكلماتِ شباكٌ.

يوسانو أكيكو.. تنهضُ في حديقتها، وتتقدم من حبيبها ونهداها بين يديها، صاغية لصوتُ الريح، الريحُ تخفق بين أوراقِ شجرةِ برقوق مزهرة.

يتحدث المايسترو طويلا مثل ذئبٍ مرهقٍ بعيدٍ، يتصل صوتُه بأبعادٍ لامرئية، أجشَّ يحاول تقليد أغاني بحارة السفن النهرية، وضحكاتِ الزوربا القرويّ العجوز، يجهلُ كل ما أعرف من نساءٍ ومدنٍ وأمطارٍ، وأجهلُ كل ما يجعل صوته مرتجفاً..
".. لا زلتُ أذكر سطوركَ المؤثرة.. من أين يأتي ذلك الحزنُ القديمُ، يورقُ حتى بين عينينا، وبين أوراقٍ نسيناها، مرتجفاً يموتُ حتى بين عينينا.."

الثلجُ.. الثلجُ وحده يتساقط على حدائقِ الماضي.

السفر الرابع

أسماء وأمكنـــة

* الحريةُ السخيفة: أن تغرقَ في تمييع الشكل، أن تغرق في عدد التفاعيل، أن تدوّر السطور حتى منقطع النفس.

* أية أرضٍ عاصفةٍ
تجوب الآن ياطفلي الوحيد
صياد اليعاسيب

(هايكو يابانية)

* من الدرجات القليلة التي
تقود إلى قلبي
صعد درجة أو درجتين

(هايكو يابانية)

* الهايكو العربية:
عودة إلى بيت القصيد بلا قافية أو بقواف داخلية. عودة إلى جذور الإيقاع، إلى الأسباب والأوتاد. لماذا يجب أن تكون هناك علامات تشير إلى النهايات دائماً؟ لماذا اليقين والشكل الرتيب الجاهز؟

* تحت ظلال أشجار الكستناء
تلتمع الأوراقُ
حمراء.. أو خضراء

(هايكو عربية)

* أمجد ناصر بعد الغزو العراقي :
ماهذا الذي تكتبه؟ لا.. هناك خطوطٌ حمراء!

*على الطريق الصحراوي غرباً:
نحو جدار بعد 45 عاماً !

* أسلوب رواية أطفال الندى:

* أتخيلُ كاتباً يعيد تركيب الأمكنة والأزمنة أسبوعياً، ينشر ما يكتب في صحيفة يومية، تصله رسائل واعتراضات، بعضهم يصحح، وبعضهم يناقش، وبعضهم يستزيد. أناسٌ يعيدون التخيل والتركيب. ولكن بعضهم مات وغاب إلى الأبد. ألهذا تظل أي رواية عصية على الإكتمال؟

* في مطار عمان ذات فجر شتائي معتم. أستاذ الجامعة. وشاحٌ صوفي أحمر وجواز سفر وثقةٌ عالية. محاضرات ورئيس هيئة عامة وزيارات للمصانع الاشتراكية، وأخيراً مركز الوحدة العربية. يبدو مرتاحاً ومنتعشاً في الوحدة. لنا وحدتنا أيضاً. مصائر مختلفة.

(يناير 1993)

* أناهيد وغسان. كلاهما يحمل حقيبته المدرسية على ظهره. يغوصان بين المسافرين. ومن بعيد ألمح الدب القطني يتأرجح خارجاً من حقيبة أناهيد.

(في الطريق إلى العالم 1993)

* غليونٌ تحت النجوم. سائق ثرثار. أتذكر:
حقل نعناع
بيوت البهبهاني
نسرٌ لايستطيع الطيران في ردهات صحيفة
ولا التقاط الحبوب

* جين هيبورن:
أنا يائسة جداً، لو كنا متزوجين لملأنا الغابة أطفالا.

* قبرٌ ضائع في الصحراء الليبية
موسى

* الأرضية التاريخية:
أزمنة وتواريخ، هجراتٌ من جنوبي الجزيرة إلى مصر حاملةً معها الطائر الحر، أو الباز بالقبطية. بناة الأهرام. الكتابة. كتاب الموتى يتضمن ميزان يوم الحساب. الأكديون في جنوبي العراق. الكنعانيون في إبلا واقرت وأريحا وقبرص وقرطاجنة. اليونان. أسطول أتروسكي ـ قرطاجي يخوض معركة بحرية مع اليونان قرب العالية في سردينيا. روما وقرطاجنة. الربع الخالي ومدنه الدارسة. توماس ينقل بعض النقوش إلى المتحف البريطاني. عشتار بافيا. السيدة الغريبة. يرحل هاني بعل وحيداً مطارداً، يشرب السم شيخاً في جزيرة يونانية. طريق العطور. بابليون وآشوريون ومصريون، ثم يونان فرومان. يأخذ الاسكندر علماً بثراء مدن شرقي الجزيرة، يموت محموما، ولا يقود سفنه التي أرسلها. الهند. عدن. الرومان يغزون غربي الجزيرة. اليرموك. مصر وشمالي أفريقيا. وشمالا يصطدم العرب بالخزر عند بوابة الأبواب.

* أناهيد :
شاعرة أكدية تقرأ الاميريكية عالمة الآثار هارييت كراوفورد اسمها تحت سطرين من قصيدة على كأس نذري. أناهيد هي ابنة سرجون الأكدي، أو السري كن، مؤسس أول امبراطورية في المنطقة قبل حوالي 5000 عام.

* معهد الفنون الجميلة في بغداد يتحول إلى مقر لفرقة مظليين. شاب مرتعب في غرفة فندق عتيق بالقرب من الجسر العتيق. طلبة يحملون بنادق. طلبة يهرعون إلى بيوتهم. يتم إلغاء المعهد. يختفي استاذ الرسم الذي لم يكن ضد شيء في العالم إلا الظلم وحده.

* صوفيا:

أنا هنا لأعيد ترتيب أمكنتي وأزمنتي أو صياغة روحي مجددا. الثلجُ الأبيض يغطي صوفيا. الأفضل القول إنه يغطي أطرافها البرونزية القاتمة وحدائقها المظلمة. يطفو نثار الثلج الأبيض، يتساقط على البشر والتماثيل الصامتة وذكرى ديمتروف.

* أسماء:
نمنحُ الأمكنة أسماءً. الأسماء أعطيت منذ الآف السنين. مع كل هذا التغيير، هل تظل الأسماء ملائمة؟ ألا نتذكر الأمكنة أزمنة ثابتة بلا حركة؟ كيف نتذكرها في حركتها؟ الأمكنة والناس؟ لو أخذنا الزمن في الحساب لن يعود الحديث ممكنا ولا استخدام اللغة المألوفة. لابد أن تولد لغةٌ أخرى. ربما لهذا السبب تولد الإنفجارات الصوفية، ينفجرغير المعقول وما إلى ذلك. هل نمتلك جرأة الحديث بلغةٍ لم يسبق أن تحدث بها أحد؟. العالم مستقرفي أسمائه. الأمكنة مدنٌ غارقة في ميناء ضحل المياه تشف عنها المياهُ الزرقاء المخضّرة، أو تغضّنها المياهُ والأمواج، وتظل ساكنة إلى الأبد.

* ليندا:
التقطُ الاسمَ في زحمة مطار لارنكا، فالتقطُ نافورة تريفي والقطارالراحل إلى فينيسيا وأسبوع التكوين.

* خيري:
يتسلل إلى الضفة الغربية حتى لايبيع البطيخ في شوارع عمان (1967). يقبض عليه، وفي المعتقل يستمني من وراء القضبان على مشهد مجندة اسرائيلية تستند إلى بندقيتها في الشمس. يرحّل عبر الجسر، ومن هناك يرحل إلى الكويت حيث يظل بلا إقامة شرعية طيلة خمس سنوات.

* نواف:
قرية مصمص في فلسطين. يحدثني عن حواصل الثقافة الفلسطينية، وعن العجائز الفلسطينيين في المقهى. إنهم يطالبونك أن تكتب.. اكتب.. اكتب.. ليس لدينا مثلك.. اكتب عن الكنعانيين.

* ناجي العلي:
يقول بعد صمت، صمتك يثير الخوف!

* غالب هلسا:
غفوة بعد الغداء أمرٌ لابد منه.. أيها الفنان.

* السياب :
نخيلٌ حتى آخر الأفق.

* البريكان:
كوب كاكاو ساخن في مقهى ذات شتاء. يتلهف للحديث عن العزلة التي نحتاجها حتى لايطغى الضجيجُ على أصواتنا. إلا أنه يعلق:
"الأمرُ يحتاج إلى قوة نفسية كبيرة"

* البريكان:
بياضٌ ناحلٌ وأسطورة.

* كائنات:
كائناتٌ كثيرة تصرخ مطالبة بالوجود. أماكنُ عديدة تبكي بعمق في اللازمن. الكائنات والأماكن تتوق إلى التجسد على الورق منتحبة.

* كنتُ أتصوّر الشخصية الروائية بذرةً ونحن من يتخيّل ويطلق ممكناتها كشجرة. والآن في صوفيا أجدُ حولي ثماراً عديدة تبدأ بالتساقط، وعليّ أن أعكس الأمر، فأتخيّل وأطلق ممكناتها كبذور. الثمارُ تتساقط عن شجرة الزمان والمكان.

* أناهيد عن العجائز وكبار السن الذين أدهشتها كثرتهم:
هم يصرّون على البقاء والحياة، فقط ليمنعوا الأطفال من الجلوس على مقاعد الترامفاي.

* أبو براك:
شيوعي من البصرة جاءت به الطائرة إلى صوفيا. واثقٌ من النصر التاريخي، ومن أن اليهود يسيطرون على البيت الأبيض. يقول وهو لايكاد يتمالك نفسه من شدة المرض.."لم نؤمن بالأشخاص بل بالمباديء، وأدينا ماعلينا بإخلاص"
يموت بعد ستة أشهر في عمان.

* جعفر:
لاأستطيع تخيله إلا باحثاً عن المصباح السحري، حاملا حفنة ذكريات عن صديقه القروي زوربا، وأصوات بحارة القوارب النهرية المشروخة وغنائهم.. أو نواحهم بالأحرى.

* رعد:
مهندسٌ عراقي مع طفلين وزوجة. يرحل خفية عبر الحدود إلى اليونان ليلا، سائراً على قدميه أربع أو ست ساعات في الغابات، ثم أثينا، فطلب حماية الكنيسة. علمتُ في ما بعد أنه وبّخ قبل رحيله صديقي لأنه يستقبل في شقته اناساً يشتمون رئيسه صدام حسين.

* شتاء صوفيا:
أشجارُ بندق أمام مسجدٍ تركي حوّلوه إلى متحف منذ مئة عام. أشجارُ كستناء عالية على امتداد شوارع بمعاطف ومظلات وقبعات. طفلٌ منزو قليلا تحت مظلة على الرصيف يعزف على كمانه لحناً صافياً بينما يتساقط الرذاذ الأبيض وتنحني عجوز وترمي ليرة في قبعة سوداء تحت قدميه.

* السلاف:
ينتشرالسلافُ في اوروبا حوالي القرن التاسع. يصل بن فضلان إلى مواطنهم مع أوائل القرن العاشر فيستولي عليه حب الأشياء البرية؛ النساءُ والأنهار والغابات وكل ما يهرب بعيداً. ينتهي به الأمر إلى التحديق في السماء ولا يعود إلى بغداد.

* عن الرحيل:
يكتب كافافيس:
"ستجد إيثاكا فقيرة لاتملك ما تمنحكَ إياه بعد أن تصل إليها. إيثاكا هي ما أعطتكَ إياه رحلتكَ الطويلة بين الجزر والشعوب والبحار والثقافات"
ويقول فيلسوف صيني يستضيفه مالرو في روايته الوضع البشري:
"من المؤسف أن الإنسان في قمة نضوجه لايعود صالحاً إلا للموت"

* فيزياء الكوانتم :
نظرية انعدام الموت

* بلغارية عجوز :
صحيح أننا حصلنا على الديوقراطية، ولكننا فقدنا المنجاري، وتعني الطعام.

* البصرة:
يتجمع العبيدُ في حارة قاصدية بين النخيل مساء كل خميس، ويبدأ قرعُ الطبول القديم منذ أيام زعيمهم علي بن محمد. إنهم يقيمون، حسب رواية جعفر، هيكلا لسفينة يرفعونه عالياً، ويرقصون ويشربون. فإذا أخذ السكرُ منه كل مأخذ، رحلوا وهم يدمدمون بلغات غير مفهومة على ظهر سفينتهم الرمزية.

* شاعرسوداني يعلّق على قصائده التمائم والأحجبة:
سقطت ذات يوم عن إحدى قصائده تميمة القائد الشيوعي القتيل "محجوب" فلم يعد يستمع إليها أحد. يقول عنه شيوعي سوداني يعيش في لندن إنه متعيش.

* أوغاي موري الياباني:
الناس بعامة يطلقون نمر شهوتهم الجنسية ممسكين به من طوقه، وأحيانا يركبون على ظهره إلى أن يسقطوا في وادي الخراب، أما أنا فقد دجّنتُ نمر شهوتي وسيطرتُ عليه.

* نسرٌ عاطل عن العمل، أجنحةٌ ضخمةٌ للدوران في دهاليز صحيفة يومية. منقارٌ مهيّا للإفتراس لايجد أمامه سوى العلف. كتب يصف حالته:
"انا عاطل عن العمل بالفطرة في عصر الثورات والمحطات الفضائية، عاجز عن الطيران تحت السماوات الواطئة، عاجز عن التقاط الحبوب. هذا هوسبب بطالتي، وسبب بقاء ذاكرتي حية أيضا"

* إلى صديقة آسيوية:
"أعرفكِ وتعرفينني، ولكنكِ لاتعرفين ليندا فتاة الفورم الروماني مثلا، ولا كاهنة معبد سافاثا. أيجب ان تقوم علاقاتٌ بين أشخاص تصادف وجودهم في رواية واحدة بحجم الكون مثلا؟. هناك أشخاص

يشبهون خيوطاً ملقاةً في كل اتجاه، فلماذا لانبتكر رواية لايعرف أشخاصها بعضهم بعضاً؟ ربما كانت هذه البراءة أعمق جمالا ومعنى"

* الشيخ عياد:
في آخر أيامه، يحاول إنقاذ روحه بالبلاغة وتجميع الأمثال والأغاني الشعبية، أغاني قريته النائية في أقاصي الصعيد. شتاء بطرسبرغ كان قاسياً وهو يلف قدميه بغطاءٍ صوفي ويواصل الكتابة بينما يسري الشللُ ويصل إلى يديه. تنحرف سطوره، وتصبح كلماته إيماءات، وشيئاً فشيئاً تنحسر الحياة عن جسد إنسان يموت.

(شاهد في مقبرة فولكوفو)

* إلى كلوديا:
كنا رفاقاً نلتقي
للمرةِ الأولى
وفي جو المساءِ رنينُ قيثارٍ
وصمتُ حديقةٍ
للمرةِ الأولى
تعرّفني على صمتِ الحقولِ
فتهربُ الكلماتُ مني
أو تعود غريبةً
للمرة الأولى..

(طليطلة 1979)

* هياواثا:
قصيدة للأميريكي لونجفلو (1807 – 1882) عن آخر الهنود الحمر والغابات والبراري، تغنيها ليندا على ساحل الإدرياتيكي للآرامي التائه.

(فينيسيا 1978)

* الله يخرّب بيتك يامعلم لقمة، لماذا لم تواصل طريقكَ إلى اليونان؟ لماذا توقفتَ في قبرص؟
(مجدي الملقب بأنطونيو في السجن البريطاني القديم في نيقوسيا، وإلى جواره المعلم ابراهيم لقمة مهرب الحشيش الذي عرفه كما يقول عشرون سجناً اوروبياً)

* سافاثا أو عين التمر:
مدينة آرامية داثرة. هي الآن اطلالٌ خاوية على عروشها ممعنةٌ في الصحراء غرب كربلاء. سكنتها قبيلة جدي وعاشت في أحد أحيائها الأربعة قبل ستمئة عام..لاطريق إليها.

* السوق الروماني:
ذات صيفٍ بين أعمدته المحطمة وأساساتِ حوانيته الضيقة، سارتْ ليندا الشقراء الطويلة القادمة من جزر هاواي. كانت تشبه كاهنة سافاثا المختطفة قبل ألف عام، ربما كانت هي ذاتها من دون أن يعرف كلانا، أو يعرف نحات هذه الحدائق التي تحول فيها العشاقُ إلى تماثيل حجرية، ولكنها تتجلبب بالفراشات.

* محمد زيور:
يختبيء محمد بين عجلاتِ شاحنة حليب تنقلها سفينةٌ ألمانية إلى البر السويدي. يقول له الضابط السويدي بعد أن سلّم نفسه:
" لماذا خاطرتَ بحياتكَ في طريق لاينجو فيه من الإنسحاق تحت عجلات الشاحنات إلا القليلون؟"
فيرد صديقي:
"إنه اليأس.."
وبعد أيام يحظى بالجنسية السويدية.

* القبطان علي:
شبيه غاندي إلا أنه بلا مغزل ولا عنزة في هذا السجن البريطاني القديم في نيقوسيا.

* إعتادت فتاةٌ ساهمة العينين ذات خصر مائل على مراقبتي من مسافةٍ بعيدة في نادي الكلية. أتذكرها بعد سنوات وأكتب أبياتاً شعرية لاتنشر إلا بعد سنوات.

* تقول الاسبانية في غرفة مؤجرة لساعة واحدة في شقةٍ عالية ذات صيف.. "أنت عربي رائع!"
(مدريد 1979)

* نبع تريفي:
بركةٌ تنعكس فيها صورُ الجالسين حول حافاتها العالية. رذاذُ النوافير يندفع عالياً ويتساقط على تماثيل لامعة في وسط البركة. الوقتُ مساءً ، وروما في الساحات. ساحة الدرجات الاسبانية، ساحة بياتسا نافونا، ساحة كنيسة سان بيترو.
الغجرياتُ والرسامون والهيبيات والسائحون يغادرون إلى المطاعم الجانبية وينتشرون في الأزقة. بعضهم يمضي وحيداً. بعضهم يمضي في جماعات. بين آونةٍ وأخرى تُسمع ضحكاتٌ متناثرة أو صرخاتٌ مرحة تتساقط في العتمة.

* يلتحق السيد رينيه بالسفارة الفرنسية عشية حرب حزيران 1967، ويستغرب من أننا لم نلتقِ في بغداد آنذاك، يظن أننا التقينا ربما. تصحو زوجته في صباح يومها الأول وتطل من النافذة، فتجد الغبارَ يعصف في الخارج ويغرق المباني والناس، فتصرخ:
" أي مكان هذا جئتَ بي إليه يا رينيه ؟ " .

* يرفع جبلُ فيتوشا غاباته عالياً، ومعها ترتفع طرقاته البعيدة الملتوية الغائمة. في مقدمة المشهد تبدو قريبةً ساحة الأندكا ببلاطها اللامع ونصب الشهداء الحمقى بألواحه الاسمنتية القاتمة. ينتأ سطر من الشعر إلى العيان:
"خالدٌ من يسقط في سبيل الوطن"
فتياتٌ، شبانٌ، مقاهي أرصفة تحتل محيط الساحة. مبنى الأندكا الثقافي تشغل طوابقه الآن أسواق تجارية مؤجرة بالقطعة وترفرف أمامه أعلامٌ ملوّنة. في الطابق الأخير الناجي، في أعلى نقطة، يقيم يانتشيف العائد من باريس معرض لوحاته، ويتوحد مع اللوحات، بينما تمر زوجته بأصابعها على مفاتيح البيانو لمستمعين غائبين.

* فلسطين:
أغنية علمها العجوز أبو يوسف لأطفال كتّابه الصغار، أبو رزق وجحا.. إلخ
تقول كلماتها بعامية فصحى:
فلسطين يابلادي
ناركِ حرقت فؤادي
وأنا في أرض العراق
سمعت الصخرة بتنادي
بتنادي على الصلاّح
على الامارة والملاح
يارب ترجع فلسطين
وترجعني لبلادي

(1955)

حرف القاف معقوداً:
أمام شباك بنك التحويلات البلغاري يقدم نفسه عربي قصير بمعطف رث أزرق:
" الأخ عربي؟"
"نعم.. ؟"
"أنا هنا أساعد العرب القادمين، أنا أعرف القوانين، خريج حقوق، وأعرف كيفية التحايل عليها، إذا احتجتَ مساعدة أنا موجود"

كان ينطق حرف القاف معقودا، تماما كما قيل لنا في كتب التراث، وكما هي العادة اليمنية اليوم، وكما تنطق حروف المسند. أتذكر طالباً شديد السمرة وأكثر قصراً بالكاد تستطيع رؤيته وهو يسعى بين الطلبة المتزاحمين. أتذكره يشمر عن ذراعيه ويحمل باليد اليمنى معطفه الأزرق ويقول متذمرا:
"العراقيين يا أخي معقدين"

* القاف نفسها:
يماني آخر كان يعمل ملحقاً ثقافياً في سفارته في الكويت، أتذكر استخدامه لهذه القافات بكثرة. مرة حين اعترض في ندوة على توصيفنا لغالبية الشعر العربي بالإنحطاط، واتهمنا بالعنصرية، ومرة حين رأيته يتقدم إلي مترنحاً ذاهلا ذات ظهيرة أمام مكتب استقبال في فندق بغدادي، فيعلن وهو يلوّح بيديه وكأنه يواصل نقاشا قديما:
" خلاص.. ما عاد عندنا تخلف. خلاص اليمن تقدم. انتهى التخلف"

* ياحلوة الهمس ِفي عينيكِ خاطرةٌ
تأبى الوضوحَ وسرّ باتَ يحترقُ
أدري بأن لهذا الصمتِ قصته
وأن قلبـــكِ في أفيائـــهاغـرقُ
وأن أول حرفٍ خطـّــه حلـــمٌ
في مقلتيـكِ شقيٌّ ليس يـنبثقُ
أنا براءاتكِ النشوى تقيّـــدني
أسيرَ أجملَ عمرٍ هزّه القلقُ

(في ذكرى الفتاة الساهمة)

* يصرّ السيد بافلوف على الاحتفاظ بكتب ماركس ولينين وديمتروف، لأنها أمانة لديه كما يقول. يصرّ أيضاً على الاحتفاظ بخزانة خشب الجوز الكامد مغلقة على ثياب زوجته المتوفاة منذ عشرين عاماً. بافلوف طويلٌ أتخيلُ أنه يزداد طولا مع امتداد سنواته الثمانين.
أتساءل:
"هل للسيد بافلوف ظل؟"

* توقفتُ عن رسم اللوحة. الزميلة الجامعية التي جلست لنرسمها معا لطيفة، لولا أنها أصرت على أن نرسمها بنظارتها القاتمة. واصل الاول الرسم، وتشاغل الثاني بموضوع آخر، وتركتُ لوحتي ناقصة كما هي حتى هذه اللحظة.

* سوتيري، أو المخلص بالعربية، مترهل الجثة، أصلع قليلا، يتحدث في دكانه وهو يقطع اللحم على خشبة عريضة مخضبة ببقايا الدهن والعظام:
" أنتم كريتيون.. هاجرتم إلى فلسطين.. يونانيون مثلنا.."
زوجته الطويلة تدير ظهرها العريض وتبدأ باعداد القهوة.

* ينبهني غالب ونحن نسير على شاطيء الدوحة في قطر إلى أن الإنسان في الكتب التراثية يدور طيلة يومه باحثاً عن الطعام ولايجد، ومع ذلك كان في نهاية المطاف يعود إلى بيته. أي كان له بيت دائماً.

* حين قرأتُ قصيدتكَ اكتشفتُ أن لك قلباً. حتى في الحلم كنتُ أراك مفكرا فأقول، ياربي.. ألا يتعب من التفكير.

(ملحوظة صديقة بعيدة عن الطائر الحجري)

* أناهيد أيضاً اسم إلاهة الجمال الأرمنية، وتنطق أناهيت، وتنطق بالفارسية ناهيت، أما في الاوردو فتنطق أناهيتا. وكان إسم نجمة الصباح عند العرب بحسبانها امرأةً ارتفعت إلى السماء في عصورهم البائدة. الأناهيد في لغة قبيلة العجمان تعني الان المرتفعات في الصحراء.

* تتساءل "جوستين" أمام عدة مرايا حولها:
" كيف تبدو الشخصية الإنسانية إذا نظرنا إليها من عدة زوايا، أو من عدة أمكنة وأزمنة في وقت واحد معاً؟"

(لورنس داريل عن بطلة رباعيته)

* يروي "حمود سبيطي" أنه صادف خلال جولاته في جبال عسير نساءً يرتدين الثوب الفلسطيني بنقوشه المميزة.. حدائق. جنات.

* الناسُ في عمّان حلزون دبق يلتصق بالصخور. تصادفه أحياناً يشرب القهوة في مقهى الفاروقي، أو يلهو في قاعة مسرح، أو يتضارب في ساحة تزلج، أو يتزاحم في الساحة الهاشمية أمام المدرج الروماني.

* جالا أقل الناس احتفاءً بنفسها وبيتها. تقرأ كل يوم جريدة الديموقراطيين الذين اتخذوا اللون الأزرق شعاراً لهم. جريدة وقهوة. سجائر. تجيء إلى مطبخنا لتناول القهوة بينما يلهو صغيرها بمكعبات ملوّنة في غرفتي.

* ديانا، إلاهةُ الصيد. خمرية اللون. وجه حزين. شفاه شهية. تعتذر لأنها لاتجيد الانجليزية، ولكنها تود أن تفهم سرّ حيوية أناهيد الصغيرة. يرفع الرجالُ والنساءُ كؤوسهم وهي تحدثني. يشربون من أجل صحة وسلامة مجهولين.

* نجني معاً أوراقَ
الكرمة الطرية
قبل أن تغيب الشمس

(هايكو عربية)

*البهجة غائبة. يبكون إلى يبتلّوا وهم يعدّون النقود أو أو يلتهمون الطعام أو يتحدثون عن بلادهم الساكنة وراء زجاج الماضي سكون فراشة ملوّنة.

* في ساحة السنتجما، ذات ظهيرة من ظهيرات أثينا، يتطاير الحمام، ويشتري الأطفالُ أكياس الذرة الصغيرة من بائع عجوز يعتمر حتى الآن قبعة سائقي الشاحنات.

* الكلام:
شجرةٌ تغيّر الغابة

* الحضور والغياب:
حين يحضر الصوتُ يغيب الصمتُ
حين يحضر الصمتُ يغيبُ الصوت
ولكنهما موجودان معاً!

* الجسدُ يتذكر:
يحضر حين يستمتع
يغيبُ حين يُكبت
الكبتُ غياب
المتعة حضور

* حين يُضاءُ الإنسانُ بنوره الخاص
يبتسم الجسدُ كلّه.

(كتبت هذه الرواية في صوفيا مابين 1996 و2000)

صدرت طبعتها الأولى في القاهرة عن دار العصور الجديدة، 2001